في سبيل

الإسلام

تأليف

الشيخ الشهيد

الدكتور فيضي محمد أمين الفيضي







دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان
DKI



تأليف

الشيخ الشهيد
الدكتور فيضي محمد أمين الفيضي



الكتاب : في سبيل الإسلام

Title : FĪ SABĪL AL-ISLĀM

التصنيف : آداب - سلوك - دعوة

Classification: Manners - Preaching

المؤلف : الشيخ الدكتور فيضي محمد أمين الفيضي

Author : Al-Sheikh Dr. Faydi Muhammed Amin Al-Faydi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

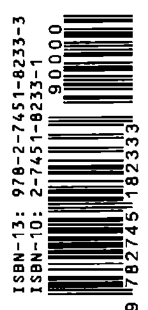
Pages	176	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2014 A.D - 1435 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN-13: 978-2-7451-8233-3
ISBN-10: 2-7451-8233-1

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التسليم على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كان آخرَ عهدِ شقيقي الشَّيخ الشَّهيد فيضي الفيضي من الدُّنيا هذا الكتاب، إذْ حدَّثني مَنْ كان يُنضِّدُه أنَّ شقيقي استدعَاه ليلة استشهاده، وطلب إليه أنْ يُتِمَّ اللَّمسَات الأخيرة على الكتاب، وظلَّ معه لساعات حتَّى أَتَمَّ الكتاب كلَّه، وكأنَّ المَوْلى عزَّ وجلَّ ألقَى في خَاطِره عِلْمَ أنَّ هذه الليلةَ آخرَ ليلةٍ في حياته.

الكتاب في أصله مقالات، كان ينشرُها الشَّهيد في عدد من المجلَّات العراقيَّة، مثل مجلة الفتوى، ومجلته الرَّباط، التي عقد عليها آمالاً، لتكون متميزةً في عطائها، وغيرهما.

وقيمة هذه المقالات تتأتَّى من كونها حصيلةَ تجاربٍ في حقل الدعوةِ خاضَهَا شقيقي في مَراحلَ مختلفةٍ من عمره، وبيئاتٍ متعددةٍ، قدَّر الله أنْ يَقضيَ فيها طرفاً من حياته الدَّعَويَّة.

ولـمَّا كان همُّه الأول الذي نذَر له حياتَه، وأفنَى فيه عمرَه هو توحيدُ كلمةِ المسلمين، والارتقاءُ بهم إلى مواقعِ القوَّةِ والفِعلِ، كان يحرص في كلِّ بيئةٍ يوجدُ فيها على اكتشاف الأسباب التي تحول بين المسلمين، وبين هذه الأهدافِ السَّاميةِ التي يتطلعُ إليها بحرقة، وحين كان يقف على شيء من ذلك، يبذلُ جهدَه، ويُعمِلُ فكرَه في سبيل ابتكارِ الوسائل الكفيلة بمعالجة هذا السبب أو ذاك.

ولقد وفَّقه الله جلَّ جلاله على الرَّغم من قصر العمر إلى تأصيل منهج دعوي، نسيج وحده، كان يحقق طموحه في المكان الذي يعمل فيه، فكان يرى في ذلك عيِّنَةً، يمكن توسيعُ رقعتِها لتشمل مساحاتٍ أكبرَ من عالمنا الإسلامي.

ومن هنا كان حريصاً للغاية على جمع هذه المقالات في كتاب، ومن ثَمَّ نشره تعميماً للفائدة، وسعياً لتحقيق هدفه المنشود، وهو الذي اختار له اسم (في سبيل الإسلام).

ولقد عاجله الأجل، فلم ير عمله هذا النور في حياته.

لكن المفاجئ أنَّ أحدَ الذين كانوا يرتادون جامع الرَّوضة المحمَّديَّة، الذي كان آخرَ مكانٍ قُدِّر له أن يخطب فيه الجمعة، جاء إلى الوالد الكريم بعد ثلاثة أيام من استشهاده، وأخبره أنه رأى الشَّيخ الشَّهيد في المنام، وقال له: أبلغ الوالد سلامي، واسأله: ماذا فعلوا بشأن كتابي، وسأَلَ الرَّجلُ والدي: أي كتاب يعني؟ فأجابه الوالد: نعم.. إنّ له كتاباً أتَمَّه قبل استشهاده بليلة، وكان حريصاً على طباعته، وسنقوم بذلك نيابة عنه.

ثَمَّ إنَّ الوالد دعاني، وقصَّ علي رؤيا الرجل، وكلَّفني بمهمَّة إخراج الكتاب إلى النُّور.

كان في عزمي أن أقدِّم للكتاب بدراسة أتناول فيها أهمَّ المعالم التي يمكن تلمسها في فِكْر الشَّيخ الشَّهيد، لكنّي وقفتُ على دراسةٍ بهذا الصدد قام بها الدكتور عماد عبد يحيى رئيس جمعية المعرفة الإسلامية، فرأيتُ من المناسب التعويلُ عليها، فهو أكاديميٌّ، عرَفَ الشَّيخ الشَّهيد عن قرب، وقرأ له، ولا تحكم كتاباته عاطفةُ القربى، فآثرته بذلك.

أسأل الله سبحانه أنْ يتغمد شقيقي بوافر رحمته، ويسكنه فسيح جنته، في ظلِّ مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أ. د. مُحَمَّد بَشَّار مُحَمَّد أَمِيْن الْفَيْضِيُّ

تقـــديم

قِرَاءَةٌ فِي فِكْرِ
الشَّيْخِ الْفَقِيْه الدُّكْتُوْر فَيْضِي الْفَيْضِيِّ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فثمَّة مقولة مفادها: «أنّ رجلَ الفكر غير رجل العمل، ورجل العمل غيرُ رجل العمل الجادّ، ورجلَ العمل الجادّ غيرُ رجل العمل الجادِّ المثمر». وانطلاقاً من هذه المقولة نستطيع أن نقدم قراءة سريعة في فكر الشيخ الفقيه ـ رحمه الله ـ.

يمكننا ابتداء أن نصفه بأنه رجل فكر بمفهوم إدراكه للواقع والحكم عليه، في ضوء المعلومات السابقة، واختيار الحكم الشرعي المناسب. لا بوصفه حاملاً لأفكار ذهنية مجردة، يشهد على ذلك جملة من المنجزات التي تشهد له بحمله لهذا المفهوم المتقدم.

ونشهد له بأنه رجل عمل جادّ مثمر أنجز سبعة عشر مشروعاً علمياً ودعويا وتربوياً في مدة وجيزة من عمره الدعوي الذي بارك الله له فيه.

ومن أبرز السمات البارزة في فكره عنايته بالتزكية والإحسان، وهذان المفهومان يمثلان خطاً واضحاً في عمله الجاد المثمر. فالتزكية بما تحويه من التخلية والتحلية تقدم منهجاً تربوياً للتخلي عن كل ما هو مذموم شرعاً، والتحلي بكل ما هو محمود شرعاً. وأما الإحسان فيمثل حالة من حالات الارتقاء في العبودية ليصل إلى الدرجة التي بينها الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك».

ومن هنا برزت في فكر الشيخ ـ رحمه الله ـ نظرة متوازنة إلى التصوف وفهمه وذلك بإطلاقه مصطلح (التَّصوُّف السَّلفي) أو (تصوُّف السَّلف) مع تحفظ بعضهم على استعمال المصطلح، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي إجماع المسلمين على حقيقة المفهوم. ولما كان أساس التصوف هو الخُلُق فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ، وانطلاقاً من مقولات السلف فَهِمَ أنَّ الخُلُق يشمل جانبين:

تخلق مع الحقّ، انطلاقاً من قوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، وتخلق مع الخلق، انطلاقاً من قوله ﷺ: «**إنّ أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً**».

والسَّلف الصَّالح في القرون الخَيِّرةِ الثلاثة الأولى إنما كانوا ينطلقون من هذه المفاهيم، وأئمة التصوف فيها هذه مفاهيمُهم. بل إنَّ الشيخ ـ رحمه الله ـ كان له عناية خاصة بالإمام ابن تيميَّة على الرَّغم من أنه من علماء القرن الثامن، وكشف عن أنَّ ابن تيميَّة كان يفهم ما ذهب إليه أئمة الصوفية كالجنيد وأتباعه والشيخ عبد القادر وأمثاله.

ومن خلال أبحاث الشيخ الفقيه نلمح جهداً طيباً في ردم ما حاول البعض أن يصوره هوة بين الصوفية والسلفية، وهذا يؤشر إلى جهد الفيضي ـ رحمه الله ـ في توحيد الصف الإسلامي، من خلال الرجوع إلى سيرة السلف، ومن خلال البحث عن المشترك بين أقوال أئمة التصوف وأقوال الأئمة الذين بحثوا في التزكية والإتباع كالإمام ابن تيميَّة، وتلميذه ابن قيم الجوزيَّة، والحافظ الذهبي، والشيخ محمَّد بن عبد الوهاب، وأبي الحسن الندوي.

ومن السمات التي يمكن قراءتها في فكر الشيخ الفقيه وعيهُ الدقيق لخطورة خلطِ الخرافة بالدين، وأثر ذلك في العقيدة وتأثيره في عقلية العامة مما يؤدي إلى إيجاد عوائق في طريق الدعاة؛ لأن الخرافة تصبح عندهم بمنزلة المسلَّمات العقائدية التي تجابه الدعاة.

وقد أنجز الدكتور فيضي ـ رحمه الله ـ بحثا تناول نقد ما نسب إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) من أحاديث تتعلق بحادثة الإسراء والمعراج، وهي مكذوبة وهو براء منها. وكانت معالجته للموضوع معالجة علمية ذات أبعاد دعويَّة.

ومن السمات التي تُقرأ في فكره وفق المفهوم الذي عرضناه ابتداءً، ما نصطلح على تسميته بالواقِعيَّة التَّطبيقيَّة.

وهذه السِّمة كنا نقرؤها فيه مذ عرفناه خطيباً في (جامع الرَّحمة) في الثمانينات، فقد نقل الخطبة المنبرية من أسلوبها الخطابي الذي يقوم على تأجيج المشاعر واستفراغ الانفعالات إلى الخطبة التي تعرض منهجاً تربوياً أسبوعيا، خاطب فيه الأُسَر، واستطاع من خلال ذلك أن يتفاعل مع الأُسر المسلمة التي اهتدت بنور الله.

ومما يندرج تحت الواقعيَّة التَّطبيقيَّة: انطلاقه في الدعوة إلى الله من المحلية إلى العالمية؛ لأنه من خلال العمل الميداني اكتشف أن ما يجاورنا من جيران وأحياء وقرى، هي بأمس الحاجة إلى الدعاة كي ينشروا فيها دعوة الله، ويعلِّموا الناس أحكام الشريعة وما فيها من حلال وحرام؛ لأن أكبر مشكلة يعانيها الناس هو عدم معرفتهم بالأحكام الشرعية التي تعالج واقعهم. وبهذا الوعي الدعوي استطاع الشيخ الفقيه الدكتور فيضي ـ رحمه الله ـ أن ينقذ الحالمين بالدعوة إلى الله في مجاهل القارات ويعيدهم إلى بذل جهدهم الدعوي في محيطهم الاجتماعي لينتقلوا بعد ذلك من أفق المحلِّية إلى العالَميَّة.

وهذا الأمر يمثل نظرة واقعية تطبيقية لا تعفي أيَّ مسلم واعٍ من أن يبلغ ولو آية في المحيط الذي يتعامل معه.

ومن مؤشرات النظرة الواقعية التطبيقية في فكره أنه رصد الخلافات الداخلية بين المسلمين، وشخص خطورة الانكفاء عليها، والانشغال بها عن العدو وما يكيده للمسلمين، بل إننا لا نستبعد أن العدو يخطط بل يُنفِّذ لتعميق هوة الخلاف.

وهذا ما وعاه الشيخ ـ رحمه الله ـ فكان داعية إلى وحدة الصف الإسلامي على مستوى القول والفعل.

ومن النقاط المضيئة في فكر الشيخ التي تمثل الواقعية التطبيقية ذهابه إلى أن رصد حركة المال في الأمة يعكس حركة الفكر الموجه لها. إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر. ومن خلال فهمه للنصوص الشرعية وإدراكه للواقع توصل إلى أن

الأمة الإسلامية لا تعاني أزمة في أفكارها، بل هي تعاني أزمة في أموالها. وبعبارة أخرى: إن من يملك الأفكار لا يملك الأموال، ومن يملك الأموال لا يملك الأفكار، وهنا ينبغي على الدعاة إلى الله عزَّ وجل أن يتوجهوا إلى أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة لرفع مستواهم الفكري إلى أفق الإسلام لكي تكون حركة أموالهم في خدمة الدعوة إلى الله عزَّ وجل.

ومما يندرج تحت سمة الواقعية التطبيقية أيضا ما يمكن أن يصطلح عليه: (إصلاح الحلقة المسجدية)، فقد دعا الشيخ الفقيه ـ رحمه الله ـ طلبة العلوم الشرعية إلى الأخذ بعلوم الآلة والعلوم الشرعية بعامة، وأن ينحوا بعد ذلك إلى التخصص الدقيق، فلا يمكن لطالب العلوم الشرعية أن يكون عالما مبدعاً في العلوم كلها. فالتخصص مطلوب للوصول إلى حالة الإبداع في العلم المعين، فيمكن أن نجد حينئذٍ عالماً في الفقه، وعالماً في الأصول، وعالماً في الحديث، وعالماً في التفسير . . وهكذا.

بل إن الشيخ ـ رحمه الله ـ دعا إلى أن لا يكتفي طالب العلم وشيخه بحل العبارات فحسب بل لا بد من الانطلاق إلى مناقشة العبارة ومفاتشتها ومحاورتها؛ لأن ذلك يؤدي إلى نمو العقلية وتفتق الذهن عن أفكار جديدة. فضلاً عن إدخال علوم مساعدة أخرى تعكس طبيعة ثقافة العصر وعلومه.

وهذا ما وجدناه في مناهج المعهد الذي أنشأه والكلية التي أنشأها ـ رحمه الله وجزاه الله خيراً ـ كما نبه على ضرورة فهم الألقاب العلمية واحترامها في لغة الخطاب لأنها تمثل درجات في العلم وتحصيله، من نحو لقب: الشيخ، وسماحة العلامة، وحجة الإسلام، وشيخ الإسلام، والإمام، والإمام الأكبر وغير ذلك.

ونرى أن هذا الأمر على قدر كبير من الأهمية لكي يعرف الإنسان قدر نفسه في مراتب العلم فلا يجور على الآخرين وعلى العلم وحقائقه.

وتؤشر القراءة في فكر الشيخ الفقيه الدكتور فيضي نظرته إلى النص والاجتهاد، فقد أشار إلى أن المسلم حينما يدرك أبعاد هذه القضية الجوهرية

فإنه في أية مسألة إذا لم يكن ثمَّة (نص قاطع) ولا (إجماع ثابت) فلا حرج من وجود (اختلاف سائغ) وما دام ثمَّة (اختلاف) فثمَّة (جواز)، ومن هنا فإنه لا ينكر على من يخالفه ولا يلزمه بما لديه، بل إنه ربما أخذ برأي خلاف مذهبه حينما يجده الأفضل والأصلح بل قل (الأيسر الأسهل)، ما دامت قواعد الشرع تتسع له، وهذا الفهم مفيد من عدة نواح. فهو يميت الخلافات بين المسلمين ويجعل القضية كلها في دائرة الشرع أو دائرة الراجح والمرجوح. كما أنه يجعل الأمة متجاوزة لحالة الانكفاء على النفس والانسحاب من الحياة، ومتجاوزة لحالة الاندماج في حياة غير إسلامية إلى حد الذوبان.

ومن المفاهيم الدقيقة التي يمكن قراءتها في فكر الشيخ الفقيه ـ رحمه الله ـ مفهوم الأمة، إذ شخَّص استعمال الناس لعدد من المصطلحات التي تنم عن عدم وضوح المفهوم لديهم كقولهم الأمة المصرية، والأمة العراقية، والأمة العربية والإسلامية، ونحو ذلك. وأشار معتمداً على النصوص الشرعية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء/ 92] وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات/ 13]، وقول الرسول ﷺ ـ في ميثاقه الذي كتبه في المدينة واصفاً فيه المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ـ: «أنهم أمة واحدة من دون الناس»، نقول إنه أشار إلى أن مفهوم الأمة هو مفهوم عقائدي فالأمة رابطتها التي تقوم عليها هي العقيدة، فهناك أمة إسلامية وأمة غير إسلامية.

الأمة الإسلامية تضم شعوباً وقبائل متعددة، ولَحَظَ أن الشعوب والقبائل وردت مجموعة في القرآن في حين أن الأمة وردت مفردة واحدة، ففرق بين المفهومين؛ لأن الشعوب والقبائل تقوم على العلاقة النسبية التي لا تفاضل بينها؛ لأنها أمر خَلْقي لا ينبني عليه ثواب أو عقاب، في حين أن تعدد الأمم يعني تعدد المناهج، ونبه على إصرار الاستعمار على طرح مشاريع فكرية وسياسية لضرب فكرة وحدة الأمة المسلمة، ليصلوا إلى تقطيع أوصال المسلمين ووأد الرابطة التي تجمع بينهم فطرحوا مفاهيم العرق أو اللون أو البلد أو اللسان لتكون بديلاً عن مفهوم القرآن والسنة للأمة.

وأخيراً وليس آخراً . . إن الشيخ الفقيه نقل العمل الدعوي من العمل الفردي إلى العمل الجماعي من خلال العناية بتلاميذه وإيجاد الرابطة العقائدية فيهم والوعي عليها، ثم ارتقى بالعمل الدعوي إلى أفق العمل المؤسسي، لأنه آلية من آليات العصر الذي نعيش فيه، وهذا الأمر على قدر كبير من الأهمية، على الدعاة إلى الله أن ينتبهوا إليه ويخرجوا من دائرة الفئوية الضيقة إلى دائرة العمل المؤسسي المتكامل.

وبعد: فإن هذا الذي ذكرناه في هذه العجالة لا نزعم أنه يمثل قراءة شاملة لفكر الشيخ الفقيه الدكتور فيضي الفيضي، وإنما هو قراءة عاجلة في فكره، وهو كما وصفه كثيرون بأنه كان (أُمَّة).

نسأل الله عزَّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعله ممن ناداه بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾ [(الفجر:27 ـ 30]. والحمد لله في الأولى والآخرة والصلاة والسلام على رسوله محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عِمَاد عَبدْ يَحْيَى

رَئِيْسُ جَمْعِيَّةِ المَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

واجب الوقت

أما آن لعابد الحرمين المتعلق بأستار الكعبة أن ييمِّم وجهه بعد الصلاة شطرَ إيلياءَ فيقف على جبل المُكبِّر مكبراً بعد إذْ وقف بعرفة ملبيا.

واجب الوقت

واجب الوقت هو فقه لا يدركه كثير من المشتغلين بالفنون كالنحو والصرف والفقه وغيرها.

فقد تجد اليوم من يقضي جلّ أوقاته في تفاصيل خلافات اللّغويّين من قبائل هذيل وتميم وباهلة.

أو خلافات النحويّين أمثال الكسائيّ وابن جنيّ وابن عصفور.

أو ربّما وجدنا من يغوص في إشكاليات المواجهات المنطقية، يقيم القضيّة، يعكسها، يبحث عمّا ينتج منها، وعمّا يغدو في المحصّلة عقيما.

بل قد تجد من يُعرِّفُ (حبة حنطة) سقطت من كيس صاحبها ـ حولاً كاملاً ـ ليؤكد من خلال ذلك على (ورع بارد) يعلن به طهره وتقواه.

فهل هذا هو واجب الوقت؟!.

ثمّة ما يشبه الرّياء في عالم (العلوم) تستطيع أن تقول إنه (ادّعاء) بيد أنّه (ادّعاء فرغ من محتواه) حين يفاخر بما لم يعد فخراً في عالم اليوم، أمّا الماضي فنُجِلُّه، وأمّا الغد فله أهله، نعيش عصرنا ويعيشون عصرهم.

ثمّة آذان أُصيبت بالصّمم، فلم تعد تسمع كلمات المبارك ابن المبارك عبد الله وهو يخاطب صنو روحه الفاضل الفُضَيْل بن عياض:

((أما آن لعابد الحرمين المتعلق بأستار الكعبة أن ييمّم وجهه بعد الصلاة شطرَ إيلياءَ فيقف على جبل المكبِّر مكبراً بعد إذْ وقف بعرفة ملبيا)).

أما آن لأهل العلم أن يدركوا لأيّ شيء أريد لهم أن يعلموا ويتعلّموا؟.

هل يجمل بمن كادت مدينته أن تغرق، أن يغرق هو في بحر من عضل

ـمسائل، من فضول العلوم لا من أصولها، يبحث في مشكلات عباراتها، ـرجاع الضمائر إلى أول مذكور، أو أقرب مذكور، في وقت خربت فيه ـضمائر؟!

هل يجمل به أن يترك (مجاديف) زورقه (ويجدف) في (هرطقات) لا علاقة ـ بالصراط المستقيم، أم عليه أن يشرع سفن النجاة!!

هل يجمل بمن احترقتْ مروجُ داره الخُضْرُ أن يستديم نافلته مستحلياً دموعه ـمالحة وهي تنساب على خديه، أم يسعى لإطفاء تلك النار!!

لعل إدراك المسلم لواجب الوقت هو الذي علّمه أن التّسبيح في الرّكوع أفضل من قراءة القرآن فيه إنْ لم نقل بالكراهة والتحريم.

وإنّ قراءة القرآن بعد صلاة العصر هي أفضل من تطوّع النافلة بل تحرم عليه حتى لو وجد راحته بها.

وبعد: فليست هذه دعوة لترك العبادة والعلوم، بقدر ما هي تذكير ودعوة لإعطاء كل ذي حقّ حقّه.

تأليف بلا تأليف

إنَّ التأليف يجب أن يقود إلى تأليف، فتأليف الكتب ينبغي أن يقود إلى تأليف القلوب، فإذا لم يؤد ذلك فليس جديراً بأنْ يقال له تأليف.

تَأْلِيْفٌ بِلاَ تَأْلِيْف

بين حين وآخر، ومن وقت إلى وقت تنزل إلى المكتبات مجموعة من الكتب قد دبّجها متخصّصون في الشريعة الإسلامية، وأحياناً غير متخصّصين! ووقف على دعمها أُناس ذوو مال وشأن وخبرة وشهرة.

ولا ريب أننا حينما تطالعنا تلك الكتب بأسمائها الطويلة، وطباعتها الأنيقة، نمني أنفسنا أن نجد فيها ما يسرّنا ولا يحزننا، وأن نجد فيها صفحة إشراق، ومبعث إيناق للقلوب والألباب.

ونمني أنفسنا أيضاً أن نجد كتاباً يخدمنا ولا يعطّل مسيرتنا . . أن نجد كتاباً يبعث الحياة في الأمّة من جديد، ويدفع حركتها صوب الأمام بهدوء وتأنٍّ، أنْ يبين لها أنّها أمّة واحدة لا تسمح لأيّ شرخ أن يظهر على جدار قوّتها ليصدّع بعد ذلك بنيانها، ولا لأيّ متكلّم أن يفرّق وحدتها ويشتّت شملها، سواء أكان كلام المتكلم بحسن نية أم بسوء وخبث طوية.

لكنّ العكسَ هو الواقع على الرَّغم من كونه غير صحيح، ويؤسفني أنَّ الواقع في هذه الأيّام غالباً ما نراه (واقعاً) متردّياً.

فأنت قد تتساءل حين تجد كتاباً يتألف من عشرات الصفحات . . مئات السطور . . آلاف الحروف، ماذا يبحث؟.

هل يبحث في ترسيخ العقيدة الإسلامية وشرحها للنشء الجديد؟.

أم هل يبحث في إحياء الربّانيّة وترسم خطى الرعيل الأول من صلحاء هذه الأمّة؟.

أم هل يبحث في بيان مدى شمولية الإسلام، وعالميّته، وصلاحيّته لكل عصر ومصر واحتوائه لكل زمان ومكان، ونحو ذلك من المفاهيم التي غابت عن الأذهان، ردحاً طويلاً من الأزمان؟.

لا. أبداً، إنما يبحث في أمور جزئية، وأحياناً قضايا خلافيّة، وسواء أكان ـحث على أساس المشروعية والإقرار أم على أساس المنع والإنكار، فقد ـت النتيجة واحدة، وكانت حصيلتها: أن ولّدت هذه الجزئياتُ والفرعياتُ ـحمَ بطوليّةً، وصراعاتٍ داخليّةً (حلَبَتُها) بيوت الله سبحانه وتعالى!.

وكأنّ الدين الإسلاميّ العظيم الذي حكم العالم من الصين إلى فرنسا، ومن ـيونان إلى إندونيسيا، وأذعن له العالم أربعة عشر قرناً، حَكَمَهَا بخلاف ـمسلمين على هذه المسائل ونحوها التي هي ليست من صلب العقيدة، والتي يـؤدي الخوض فيها والجدال حولها (بداهة) إلى النزاع بيَن المتحابين والتنافر بين ـمتآلفين.

(ويقيناً) فالكلام الذي نجده اليوم على الأوراق البِيض المطبوعة هو نفسه ـذي نجده في كثير من الكتب الصُّفْر المخطوطة.

ومما يؤسف له أن بعض الناس لا يملك مهمة في حياته سوى (مهمةً واحدةً) ولا يعرف عطاءً للإسلام سوى (عطاءً واحداً) فعطاؤه ومهمته أن يثير أخبار تلك المسائل لتعود آثارُها تارة أخرى لا لمصلحة أحد، إلا لمصلحة التنازع والاختلاف الذي هو من أكبر الآثام، وأحرص ما ينتظره أعداء الإسلام!!.

والكل يعلم ـ ابتداءً وانتهاءً ـ، أن هذه المسائل كفيلةٌ بأن تعود عواقبُها الوخيمة كلما أثيرت، ما دامت أوجه الشبه حاصلةً بين المسألةِ، وطبيعةِ الناس، وطريقتي العرض والعلاج.

وليت هؤلاءِ الباحثينَ بحثوها ـ حين أصرّوا على بحثها ـ بالفهم الإسلامي الشامل، والكلام الأخوي، والحوار الملتزم، والنقد البناء، والقلم العف، بالعبارات المهذبة، والكلمات الطيّبة التي تجمع ولا تفرّق، تؤلّف ولا تُنفّر، تقرّب ولا تُبعد.

إنّ التأليف يجب أن يقود إلى تأليف، فتأليف الكتب ينبغي أن يقود إلى تأليف القلوب، وإذا لم يؤد ذلك فليس جديراً بأن يقال له: (**تأليف**) وحين يظهر

مؤلِّفٌ يكون سبباً في نفرة قلوب المسلمين، وإشاعة الشحناء بينهم، لا يكون قاصراً عن أداء رسالته فحسب بل يكون مؤدياً لعكس رسالته.

فتحبير الأوراق سلاحٌ ذو حدين، فإمّا أن يكون للكلمة أثرٌ طيب فينال المؤلِّف من رضوان الله سبحانه مالا يخطر ببال بشر، وإمّا أن يهويَ بها في جهنم سبعين خريفاً[1].

ومما يؤسف له: أن نجد ممّن يبحث في مثل هذه المسائل ممّن لا يرى إلّا نفسه، ولا يقبل إلّا رأيه، وممن يرمي بكلمات التجهيل، وعبارات التضليل، على من يخالفه في رأي، ولا يوافقه في اجتهاد.

ولا ندري لماذا كلّ هذا؟ ومن الذي يملي على هؤلاء الإخوة هذا الأسلوب في البحث عرضاً وتدليلا؟ هل هو الإسلام؟ أم هو الفهم المخطوء للإسلام؟ أم هو الانفعال في الرّدّ على المخالف؟.

وحاشا لله أن يكون الإسلام، فالإسلام دين الأُخوة الصالحة، والكلمة الطيبة.

ونذكّر أخيراً بحديث رسول الله (عليه الصّلاة والسّلام): «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا**»[2].

ونعود لنقول: (**إن التأليف ينبغي ـ بل يجب ـ أن يقود إلى تأليف، فإذا لم يؤد ذلك فليس جديراً بأن يقال له: تأليف**).

---

(1) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار». رواه الترمذي: 4/ 557 بالرقم (2314).

(2) رواه البخاري: 6/ 2680 بالرقم (6931)، ومسلم: 4/ 2054 بالرقم (2666).

كتب
تشتت الكتائب

إنّنا نستطيع أنْ نقول: إنّ كل كتاب من هذا النّمط من الكتب، هو كتاب مفرّق للكتائب، مشتّت لها، مضيّع لمعنى الضمّ والجمع الذي على أساسه قام كلّ كتاب معتبر في الدّنيا، وأوّل ذلك كتاب الله سبحانه وتعالى.

كُتُبٌ تُشَتِّتُ الْكَتَائِب

الكتاب في اللغة: مصدره الكَتْبُ، بمعنى الضَّم والجمع.

ومنه قولهم: تَكَتَّبَ بنو فلان، إذا اجتمعوا وانضم بعضهم إلى بعض، والكتيبة: الجيش، كتّب فلان الكتائب تكتيباً، أي عبّأها كتيبة كتيبة، وتكتّب الخيل: أي «تجمعت»، وكتب إذا خط بالقلم، لما فيه من اجتماع الكلمات والحروف[1].

وهكذا تتعدد الألفاظ، وتلتقي في الجذر الواحد الذي يحمل معنى الضَّم والجمع.

هذه المعاني لاحقتنا في طلبنا للعلوم حيثما يمّمنا وجوهنا، صوب حاشية أو شرح، أو معجم أو قاموس، قرأنا ذلك مراراً وتكراراً، وحفظناه عن ظهر قلب، استمعنا المشايخ فيه وأقرونا عليه.

ثم مرت الأيام فشرحناه لإخواننا من الطلبة في حلقات المساجد وعلى منصات الجامعات . . واستقر في العقول والضمائر أن الكتاب بمعنى الضم والجمع، وأنه بغير هذا المعنى لا يكون كتاباً، تعلمناه لغة وفهمناه درساً، ثم آمنا به منهجاً ودعوة.

هذه مقدمة أوطئ الحديث بها عن عالم الكتب وما فيه من (ركام) من المطبوعات لا تحمل معنى الضم والجمع.

فلقد وقفت في سوق المكتبات ذات يوم على كتابين في موضوع واحد، وكان كل كتاب ينحى منحى يخالف الآخر، فكتاب يجيز ويقدح في المانعين،

---

(1) ينظر الصحاح للجوهري: 1/ 208، مادة (كتب).

وكتب يمنع ويقدح في المجيزين. وكان الكاتبان يبحثان بعبارات قاسية وكلمات كذبية، لا تعلق لها بالبحث العلمي ومستلزماته، يشفعان بها البحث بين سطر وآخر، فتسود الصفحات البِيض بالمداد الأسود، الذي سرعان ما يعكس سواده على القلوب، فتكدر بعد صفاء، وتحقد بعد إخاء!!.

ويفقد المسلم أخاه، وما أقساها من كلمة، وأحزنه من فعل، ولم ذاك؟!.

لا لشيء سوى أن هذا المسلم أو ذاك لم يفهم الإسلام تمام الفهم، أو لنقل بعبارة أخرى: لم يعرف كيف يشرح الإسلام لإخوانه، جهل الطريق السويَّ، والأسلوب الحسن، ذاك أن العلم شيء والفهم شيء آخر، فالفاهم يعلم الناس وغير الفاهم يخطئ الناس، وشتان بين الأمرين.

إنّ الفاهم هو الذي يعلِّم الناسَ ما تعلَّمه دون أن تطفو على سطح المجتمع أية آثار سلبية في تعليمه، وغير الفاهم هو الذي يعقب عمله مشاحنات وخصومات لا ترضي الله تعالى.

إنّ إصلاح الخطأ - أي خطأ كان - لا ينبغي أن يكون بإحداث أخطاء أخرى ينوء كاهل المسلمين بحملها وبنتائجها.

ولا أدري بعد ذلك كيف نريد من الناس أن يحترموا دعوتنا ويثقوا بدعاتنا إذا كان منهم من يجرح بعضهم بعضاً، ويستطيل عليه بالقول والفعل؟!!.

وما يفعله البعض على الأوراق يشاركهم آخرون في مثله، بل ربما مثليه على منابر المساجد، وكراسي الوعظ والإرشاد، ويفعل قريب منه في دور العلم على منصات الجامعات، بل تجاوز ذلك إلى القنوات الفضائية والتلفزة والإذاعات.

لقد بدأ التباري في هذا المسلك بين المطبوع، والمرئي، والمسموع، من أجل إقناع القارئ أو السامع بصواب الفكرة وحسن الأسلوب، ومهما أوتي القارئ أو السامع من ثقافة، فإنه ليس من أهل الاختصاص، فسرعان ما تجده ينتقل من وجهة نظر إلى أخرى مباينة لها تماماً كلما اطلع على كتيب أو كراس،

أو استمع إلى درس أو محاضرة، لا لقناعته العلمية البحتة، فهو غير متخصص، وإنما يجذبه حسن عرض هذا الكتاب أو ذاك، وربما وافق هوى في نفسه، وربما أمور أخرى.

لقد شعرت وأنا أقلب صفحات الكتابين وأجيل الطرف بينهما، بالأسى يملأ قلبي، وتملكني حزن كبير يصل بحامله حد الضيق، والوحشة، والتفت إلى أمواج الطلبة والشبيبة، والناس عامة، الذين لا يفهمون من دقائق المسائل إلا النزر القليل، وساءلت نفسي: يا ترى ماذا لو اطلعوا على هذين الكتابين؟ وما فيهما من (لكمات) الكلمات؟ وخاب الظن فيما توقعوه من أسلوب الهداة المرشدين؟.

ولقد فكرت آنذاك لو أن شاباً تاب جديداً وأراد أن يقتني كتاباً يشرح له الإسلام، ويشرح الله به صدره، وينقذه من براثن الكيد اليهودي، والحقد الصليبي، ومن معارك التشكيك التي ما يفتأ أعداء الإسلام يضربون بها بنيانه من القواعد، إنَّه ما من ريبٍ سيقتني الكتاب، فالعنوان يشير إلى أنَّه كتابٌ إسلاميٌّ، والتائب يبحث عن الإسلام، ولكن كم ستكون الصدمة كبيرة حين يخيب ظن هذا التائب؟ فتقع عيناه على كتاب في الصورة ولكنه ملحمة في الحقيقة، فلا يقرأ فيه من كلمات سوى: «هذا جاهل وذاك ضالّ» وهكذا دواليك .

إننا نستطيع أن نقول: إنّ كل كتاب من هذا النَّمط من الكتب، هو كتاب مفرّق للكتائب، مشتت لها، مضيع لمعنى الضم والجمع الذي على أساسه قام كل كتاب معتبر في الدنيا، وأول ذلك كتاب الله سبحانه وتعالى.

أَخَدَمْنَا الإسلامَ بعملنا هذا؟ أحقّقْنَا دعوةَ القرآن الكريم إلى الوحدة؟ أم حققنا رغبة الأعداء في دعوتهم إلى الفرقة؟.

منذ متى يكتب الكُتَّاب في مثل هذا النَّمط، فهل وصلوا إلى ما توقعوا الوصول إليه من إقناع الفئام الأعظم بما كتبوا؟.

قطعاً لا، بل (الحرب سجال) فتارة تكون الجولة لهم وتارة تكون عليهم.

ومع هذا فلسنا ننعى على من شاء أن يكتب ما شاء مادام مقيداً بمعنى الضم والجمع، إنما العتاب على حشر ما لا تعلق له بالبحث العلمي، أن يداخل الكلام فيفرق بين الأسطر ويخالف بين الحروف، ويظهر أثر ذلك في القارئين ثم في جموع المسلمين.

لقد أرسلت حسرات آنذاك . . على ماذا؟ وعلى من؟ أعلى غربة الإسلام؟ أم على عموم المسلمين الذين يتطلعون إلى الكلمة الرشيدة، والحكمة الجامعة؟ أم على أولئك التائبين إلى الله جديداً والذين سيقعون في براثن الحيرة، ومتاهات الضياع لو اطلعوا على ذلك؟ أم على أولئك الكتّاب ـ سامحهم الله ـ؟!

لا أدري سوى أنني أذكرها حسرة حزن على واقع مأساوي خانق بحاجة إلى مصلح رشيد.

هذه هي الخطيئة الكبرى التي يرتكبها بعض الدعاة بحق أنفسهم، وبحق إخوانهم من المسلمين، ويسجلون ملحمتها بأيديهم، أنهم «يبحرون ضد أنفسهم» هذه هي الحالة الاجتماعية التي يعيشها أنفار من المسلمين ويظلون حائرين فيها، دائرين في فلكها، وهي في نتيجتها لا تعني سوى شيئين:

الأول: إشغال الناس وإلهاؤهم عن قضاياهم المصيرية، وأملهم المنشود بالعيش بأمان وسلام تحت الراية العظيمة التي ما عرفوا سواها ولن يعرفوا أبداً.

تلك هي راية «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله» والتي يوم تخفق، تخفق القلوب معها، وتحنُّ لها، لأنها لهم ولأنهم لها.

الثاني: تهيؤ فرصٍ متجددة وثغرات أخرى يسهل على أعدائنا أن يثيروا غبارها، ويجتازوا من خلالها إلى ما يرومون من شرور في أيّ وقت يعلِنُ فيه مؤشِّر علمِ الاجتماع أنَّ محرار الإيمان بالوحدة الكبرى، واتّحاد الكلمة، وتوحيد الصَّف، قد ارتفعت درجاته واقترب ميقاته، فإنّهم آنذاك سيثيرون هذه المسائل، وسيشتغل بها المسلمون ردحاً من الزمن، غير مقدرين ما ينتج عن اشتغالهم بها من تأخير ونكوص، وغير سائلين: يا ترى من يثيرها؟ ومتى أثيرت؟ ولماذا في هذا الحين بالذات؟.

إنَّ على المسلم أن يكون (مسؤولاً ذكياً) ولا يكفي الذكاء وحده بل ينبغي أن يكون (مسؤولاً ذكياً واعياً) يدرك قضيته في الحياة، وأنه لا بد من أن يجتمع المسلمون في صف مشترك على (فهم عام موحد صحيح) منبثق من أصول الشرع ومقاصده، لا على (فهم خاص واحد خاطئ) لأن «**يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**»[1] و«**إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ**»[2].

إنّ علينا أنْ نفهم أنّه إنْ لمْ نوفَّق لأنْ نجمع المسلمين على ذلك، فلنرْبأ بأنفسنا ـ على الأقل ـ من أن نكون أداة لتفريقهم، ومعولاً هداماً لبنيانهم، وقد ورد «**الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ الله مَنْ أَيْقَظَهَا**»[3] «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**»[4].

---

(1) حديث شريف رواه الترمذي: 4/ 466 بالرقم (2166).

(2) حديث شريف رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحين: 1/ 330 بالرقم (765).

(3) حديث شريف رواه الإمام الرافعي في كتابه التدوين في أخبار قزوين: 1/ 291.

(4) حديث شريف رواه أبو داود: 3/ 80 بالرقم (2751)، وابن ماجه: 2/ 895 بالرقم (2683)، والنسائي: 8/ 24 بالرقم (4735).

تقطن في حَيِّنَا

كما أن فكر المسلم ينبغي أن يكون (عالَميَّاً) فـ (من لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم) فإن عمله ينبغي أن يبدأ (محلِّياً) ولا ينبغي أن تصدَّنا دهشةُ المصاب عن تدارك ما يمكن تداركه، كلّ مسلم على ثغرٍ من الثُّغور، فليحذر أن يؤتى المسلمون من قِبَلِه.

أفريقيا تَقْطُنُ فِي حَيِّنَا

كثيراً ما يفكّر الدُّعاة، ويتحمَّس المتحمِّسون للدَّعوة إلى الله في أصقاع نائيةٍ من العالم، في مجاهيل أفريقيا، في جنوب شرق آسيا، بين أدغال براهمة الهند، أو بين أوثان بوذا اليابان والصين.

ولقد ضمَّني مجلس ذات يوم مع أحد هؤلاء الإخوة، تحدث بمرارة عما يجري في أفريقيا، وما يعانيه المسلمون هناك، وأنه يتطلع إلى السَّاعة التي يذهب فيها للدَّعوة إلى الله في أفريقيا وينتظرها بشوق كبير.

وحقّاً ما قال، فأفريقيا اليوم تعاني من (الجفاف والتنصير) وبين ناريهما تترنح شعوب بأكملها، ويُسعى لإبادتها جسدياً تارةً، وعقائدياً تارةً أخرى.

لكن كيف السبيل إلى أفريقيا؟ ألا يحتاج ذلك إلى (الزاد والراحلة)؟ ألا نحتاج إلى أمور كثيرة ينبغي توافرها، هي الآن بالنسبة لي أو لمحدثي أشبه ما تكون بالسَّرَاب؟.

قلتُ لمحدثي: حسبْكَ يا أخي الآن قول المصطفى ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**»[1]. فأنت والحمد لله تحدث نفسك.

ظلَّ الرجل قابعاً في بيته، يفكر في أمر الدعوة إلى الله سبحانه في أفريقيا، لكنني لم أره يخرج من البيت إلا إلى صلاة الجماعة أو العمل، أو إلى بعض الجلسات التي يتحدث فيها عن أفريقيا.

ذات مرّة قلت له: هَلُمَّ بنا اليوم إلى أفريقيا.

ابتسم الرَّجل، فقد تيقن أني أمزح معه.

---

(1) رواه مسلم: 3/ 1517، بالرقم (1910).

فقال باسماً: متى؟

قلتُ: نصلي العصر ونخرج.

قال: ما تقول؟!.

قلتُ: سترى.

انصرف الرَّجل وهو غير شاكٍّ في أنني أمزح معه.

صلّينا العصر ثم طرقت الباب عليه بعد أن يسّر الله لنا واسطة النقل، خرج الرّجل فلحق وركب السيّارة، وانطلقنا نقطع المسافات واتّجهنا شمالاً.

قال صاحبي: هل أفريقيا بهذا الاتجاه؟.

قلتُ: سترى.

ثم عاود السؤال: أين؟.

قلتُ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1].

وقبيل مدينة (سِنْجَار)[2] يميناً، توجهنا إلى إحدى قراها. ودخلنا القرية فإذا بيوتٌ قديمة، وفِطَرٌ سليمة. ولكنه جهلٌ مستحكم، وبعدٌ عن الفقه كبير.

قصدنا المسجد والتف حولنا الناس، وبدأت الكلام ثم طلبت من صاحبي أن يتحدث لهم، فقال: سأحدثهم عن أفريقيا.

قلت: ويحك! نحن الآن في أفريقيا، ها قد أوتيت سؤلك، حدثهم عن الإسلام، حدثهم بكلام الدين والإيمان.

وانطلق صاحبي منشرح الصدر ببيان ما خلته يصدر عنه، وبعد أن أنهى كلامه، بدأت الأسئلة تنهال علينا من الجميع، واتضح لنا من خلالها أن أهل تلك القرية في جهل مفرط، فهم لا يصلّون على جنازة طفل أو امرأة، ويظنّون أن صلاة الجنازة هي على الرجال فقط، وتبيّن أيضا أنهم لا يعرفون أنّ الرّضاع يُحرم، ولا يعرفون أنه: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»[3].

---

(1) سورة الكهف: الآية 70.

(2) قضاء يقع في شمال غرب مدينة الموصل/ محافظة نينوى، العراق.

(3) حديث شريف رواه البخاري: 2/ 935 بالرقم (2502).

فلما بدأت الحديث عن ذلك همس في أذني أحد الحاضرين: هل تعلم أننا لو طبقنا ما تقول لاقتضى أن تتفرق عوائل وتتشتّت أُسر؟.

قلت: لِمَ؟.

قال: كما رأيت فالاعتقاد السائد هنا أن الرضاع لا يحرم، ولو قلنا بالتحريم لانفَصَمَتْ عُرى تلك الأسر على مستوى الأجداد والأبناء والأحفاد.

كان صاحبي يسمع ذلك الهمس، فالتفتُّ إليه قائلاً: أرأيت يا أخاه كيف أن أفريقيا بقربنا! كيف أنّ أفريقيا التي تنشدها تقع قريباً من دارنا! ويا ترى كم أفريقيا حولنا؟ هل تتصور أنّ أفريقيا واحدة في دنيا الناس، فكم في هذه القرى من جهلٍ مُطْبِقٍ بتعاليم الإسلام؟ وكم فيها من بدع وخرافات وشعوذة غدتْ دِيناً يدِيْنُ بها أهالي هذه المناطق وهم لا يعلمون؟ ولو عدنا إلى الموصل فسنجد في أحيائها الشعبية وأسواقها القديمة (أفريقيات) كثيرة. فأفريقيا يا أخي تَقْطُنُ في حَيِّنَا.

واسمح لي أن أقول لك:

كما أنّ فكر المسلم ينبغي أن يكون (عالَمِيّاً) فـ «**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**»[1] فإن عمله ينبغي أن يبدأ (مَحَلِّيَاً) ولا ينبغي أن تصدنا دهشة المصاب عن تدارك ما يمكن تداركه، كل مسلم على ثغرٍ من الثغور، فليحذر أن يؤتى المسلمون من قِبَلِهِ، والله سبحانه يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[2].

عدنا إلى الموصل ليلاً وعاهدني صاحبي أنه لن يحصر جهده بعد اليوم في الحديث عن أفريقيا البعيدة، وإنما سيعمل في أفريقيا القريبة، والقريبة جداً.

(1) حديث شريف رواه الطبراني في الأوسط: 7/ 270 بالرقم (7473).

(2) سورة التغابن: الآية 16.

راهبة بين الأدغال

لقد جهد أجدادنا الصالحون في إيصال دين الله إلى تلك البقاع النائية في الزمن الغابر، فهل يستطيع مسلمو اليوم في عصر وسائط النقل السَّريعة، وشبكات الاتصال الحديثة أن يقدموا للعالم ما قدمه أجدادهم على ظهور الدواب؟ أو على الأقل أن يحافظوا على ذلك الإرث العظيم

رَاهِبَةٌ بين الأدْغَال

نَشَطَتْ في العقود المتأخرة جمعيَّات خيريَّة ودعويَّة، تقف على دعمها مؤسسات ذكيَّة وواعية، هدفها إيصال نور الإسلام وصوت الحق إلى بقاع المعمورة.

نَشَطَتْ هذه الجمعيَّات والتزمت أن تنأى بنفسها عن الدخول في تفاصيل من شأنها أن تقف حاجزاً أمام هذا الخير، وتحرم العالم من بركاته، وحسناً فعلتْ.

وكان من برامج عمل هذه الجمعيَّات أنْ تحدد أولاً الأماكن التي تكون الحاجة ماسة جداً إلى تجديد شباب الدين فيها، وتدارك ما يخشى معه من ذَوَبَان شخصيَّة المسلم، واندماجه في المجتمع الجاهلي الذي يحيط به، والتبشير بهذا الدين في بقعة يمكن أن توجد فيها آذان صاغية، وقلوب واعية.

وبعد هذا التحديد تتم مفاتحة أولي العِلْم والدَّعوة والإرشاد، والنظر في طلبات الراغبين ممن يجد في نفسه كفاءة لمثل هذه الأعمال الجليلة، لتوزع المواقع ـ حسب القابليات والكفاءات المناسبة للمتقدمين ـ عليهم.

كان الكثير في الغالب يطمح إلى أن يعمل في جنة من جنات الله في الأرض، فما أجمل أن تكون الدعوة إليه سبحانه في بلد من بلاد الغرب المتقدمة، في فرنسا . . ألمانيا . . السويد . . النرويج . . وهكذا، حيث جمال الطبيعة الخلاب مع آخر تقنيات العلم الحديث، في بلد يصدق عليه قول القائل:

مَا أجْمَلَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا إذَا اجْتَمَعَا

وفي جلسة أعدت لهذا الغرض ابتدأ الحاضرون بتلاوة أسماء المرشحين

يعمل في بقاع العالم، كانت معاني السرور تتفاوت من شخص لآخر لاعتبارات متباينة لا مجال هنا لشرحها.

وكان نصيب رجلين من المرشحين تلك القارة السمراء (أفريقيا) وحين تليت الأسماء، نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، وارتسمت على الشفاه ابتسامة (باهتة) فقد كانا ممن يحلم بالعمل في بلاد الشَّمال فكانت الأمور عكس (الأحلام) والواقع عكس (الأمنيات).

استفهم أحدهما من الآخر قائلاً: أفريقيا؟!

قال الآخر: القارة السَّمْرَاء؟!

فأجابه الأول: إنّ بَشَرَتَيْنَا سمراوان.

فأجابه صاحبه: إنّ هذه القسمة مناسبة لنا بالحد الأدنى لبَشَرَتَيْنَا . .

لم تكن هناك مهلة للاستمرار في مثل هذه الدُّعَابة الخفيفة ولا لمزيد من التَّفكير بالأمر، فقد كانت الكلمات الإيمانيَّة التي تنبعث من الإخوة المرتَّبين لهذا النَّشاط تبعث الأمل في نفوس الدعاة، أو قُلْ على أقل تقدير: (تثير كوامن الحياء) بحيث لا يستطيع أن يتراجع من أراد، هل يفرُّ من الزحف؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[1].

كانت رحلة الطائرة ممتعة، وحين هبطت في مطار ذلك البلد الأفريقي، استقبلهما الإخوة الذين اتصلتْ بهم إدارة الجمعيَّة الخيريَّة لتسهيل عمليهما، تمنَّى الرجلان أن يكون عملهما في العاصمة، لكنهما أُخبِرا بأنّ مقرَّ العمل هو في أرض أخرى، انطلقت بهما السَّيارة تنهبُ الأرض، وبعد سير طويل توقفت السَّيارة وأُخبِرا أنّ عليهما أنْ ينزلا ويتابعا السَّير على الدواب، ظنَّها الرجلان فكاهةً، لكن سرعان ما علِمَا أنها حقيقة وأن الأرض وعرة، ولا يمكن للسيارة أن تسير فيها، تمنَّى الرجلان أن يعملا حيث انتهت بهما السيارة، لكنهما أُخبرا

(1) سورة الأنفال: الآية 7.

أن الموقع أبعد من ذلك، كانا وهُمَا يمتطيان الدواب قد أحسَّا بنشوة غريبة، بنشوة تاريخية يكتنفها نوع من الشُّعور بالأسى، نشوةُ الماضي وأسى الحاضر.

قال أحدهما للآخر: إنَّ حظَّ (فلان) و(فلان) هو خير من حظنا، وذكر أسماء عدد من الأقران، فهم ينعمون الآن في مروج خُضْرٍ . . في ظلال وارفة . . وعيون جارية في البلدان التي ذهبوا إليها.

وبينما الرجلان في هذه الأفكار سمِعا صوت الأدلّاء يأمرونهما بالنزول عن الدواب، والمتابعة والسير على الأقدام والدخول في مستنقع ماء.

ترددا فقيل لهما: اطمئنا فلن يغمرنا الماء، إنه لن يتجاوز حد الحزام.

وبعد مسيرة مضنية دخلا فيها أعماق التاريخ، واستخدما كل وسائل النقل التي استخدمها (الإنسان القديم) كانت المحطة الأخيرة . . (قرية صغيرة) فيها مسلمون مقطوعون عن العالم، لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، كان بعض هؤلاء يظنُّ أنه لم يبق مسلمون في العالم سواهم[1].

دهش الرَّجلان لوجود مسلمين في هذه البقعة النائية، كانت القرية من نمط قرى الفقراء، وأي فقراء؟ فقراء أفريقيا، ليس هناك ما يميِّزها سوى أنها كثيرة الأدغال، وعلى جنبات الطريق الموصل إليها أشواك، امتدَّ بعضها إلى الطريق نفسها.

كان التَّعب قد بلغ ذروته، والأفكار تتصارع في ذِهنَي الرَّجلين، ما الذي جعلهما يوافقان على هذا الخيار الصعب؟ أما كان الأجدى بهما أنْ يختارا ما هو أنسب وأنفع؟ لم تكن الأفكار متجهة للعمل فيها قدر ما كانت باتجاه العودة، أو بتعبير أدق: الفرار.

بَيْدَ أنَّه حصل ما قلب الأمور، بل لنقل: عدَّل الأمور.

---

(1) حدثني بعض الدعاة أنه ذهب إلى إحدى القرى الأفريقية فوجد أن أهلها يعتقدون أنهم المسلمون الوحيدون في العالم، وأن الجمعيات التنصيرية قد وظفت هذا الاعتقاد لإخراجهم عن الدين لولا وصول الدعاة.

لقد أبصرا في تلك القرية امرأة شقراء في مقتبل العمر ترتدي ثياب ـ هبات، قد جاءت من بلاد الشَّمال سبقتهما إلى هذه (النَّائية) واتخذت لها بين حراشها) سكناً، بل (كنيسة) لتقنع هؤلاء الذين تركهم أبناء جلدتهم أنه لم يبق سلم في العالم سواهم، وأن عليهم الالتحاق بركب العالم الذي غدا كله سيحيًّا).

تأمَّل الرَّجلان في عدد من المفارقات:

هما مسلمان وهي ليست بمسلمة . .

هما اثنان وهي واحدة . .

هما رجلان وهي امرأة . .

هما متأخران وهي قد سبقتهما.

كان وجود هذه (القسيسة) موقداً للحماسة في قلبيهما، ودافعا للعمل في القرية، وليس الهروب أو الفرار.

اندفع الرجلان واستطاعا ـ بتوفيق من الله تعالى ـ أنْ يصلا ما انقطع من حبال الدِّين في تلك القرية، وأنْ يوثقا صلة أهلها بالعالم الإسلامي، وبذلك حفظ الله لهذه الثُّلَّة دِينَها، وكتب ثوابَها لكل من أسهم في هذا الخير.

ختاماً أودُّ أنْ أقول:

لقد جهد أجدادنا الصالحون في إيصال دين الله إلى تلك البقاع النَّائية في الزمن الغابر، فهل يستطيع مسلمو اليوم في عصر وسائط النقل السَّريعة، وشبكات الاتصال الحديثة أنْ يقدموا للعالم ما قدَّمه أجدادُهم على ظهور الدواب؟ أو على الأقل أنْ يحافظوا على ذلك الإرث العظيم.

عَسَى ذلك.

العاملون للإسلام والطاولة المستديرة

إنّ اعتزازي بقناعتي لا يُبيْحُ لي فرضَها على الآخرين، إنّ رغبتي في ترميم داري لا ينبغي أن تقوم على هدم دار جاري، فالكلُّ مجتهد، والله أعلم بمن له أجران أو أجر واحد.

العَامِلُوْنَ لِلإِسْلاَمِ وَالطَّاوِلَةُ الْمُسْتَدِيْرَة

بعد زوال معظم الآثار السلبية (للصدمة) النفسية التي أصابت الأمة عقب سقوط آخر خلافة إسلامية، وبعد اختفاء البريق الذي أصاب عيون المسلمين نتيجة (الانبهار) بالحضارة الغربية، نشط العاملون للإسلام تارةً أخرى، وانطلق كل فريق من الأمة يعمل في جانب من جوانب الدين، فظهر العمل للإسلام في جوانب عدة:

الجانب الإصلاحي، والدعوي، والتربوي، والتعليمي، والتبليغي، والتثقيفي، والخيري، والاجتماعي، والاقتصادي، والإعلامي، والسياسي.

وكانت هذه (الانطلاقة) مما يفرح المؤمن ويغيظ الكافر، إذْ بشَّرَتْ بمستقبل للأمة زاهر، وخير من الله سبحانه قادم.

كانت تلك (الانطلاقة) هي ما اصطلح على تسميتها بـ (الصحوة) ومهما حاول البعض (تفسيرها) أو (تبريرها) من الربط بينها وبين المشكلات السياسية والإخفاقات العسكرية التي عصفت بالأمة وقتذاك، ومهما اختلِف في تلك الطروحات فلا يختلف الجميع على أنها اليوم واقع ينمو ويزداد.

وكأيٍّ عملٍ ريادي مفيد بقدر ما يُشادُ به لمزيتي (الريادة) و(الإفادة) إلا أنه يؤخذ عليه (مآخذ عدة) منها: التلكّؤ في الوصول إلى الهدف بزمن قياسي دون عثرات بسبب (الرواسب) التي تنسحب مع (الرواد) من زمن ما قبل الريادة.

وكان من أهمِّ ما يميز هذه الصحوة (الاعتداد بالنفس) و (الثقة المطلقة بالعمل).

وعلى الرَّغم من أن هذين من أهم ما يشكل دافعاً للمضي في الطريق حتى النهاية، إلا أن تضخم هذا الشعور كان أحد أبرز المعوقات التي حالت، وتحول

دون الوصول إلى الهدف العام الذي يسعى إليه الجميع ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ بسبب انفصام عُرى التعاون بين العاملين للإسلام، في تلك الجوانب المذكورة أولاً، إذْ أصبح عدد من الفرقاء العاملين يشعرون أن الجانب الذي هم عليه هو (الإسلام) كله وليس (جانباً منه).

وانطلقوا في حالة تشْبَه (الوصاية) إلى حدٍّ مَا بقانون مفاده: أنَّ على مَنْ سواهم من العاملين أنْ يُسلِّموا لهم (كل) طروحاتهم في العمل الإسلامي، وأنْ لا يعمل الآخرون في الموقع الذي هم فيه حتى يتمَّ استئذانهم جملة وتفصيلاً، أو أنّ عليهم أنْ يغادروا مواقعهم في العمل لهذا الدين.

بل إنّ تضخم الشُّعور بالاعتداد بالنفس طال أصحاب الجانب الواحد حين تتعدد الرؤى فيه، ففي الجانب السياسي أو الإصلاحي أو التربوي رؤىً لم يستطع أصحاب تلك الرؤى ضمْنَ الجانب الواحد من الاتفاق على الحد الأدنى من اللقاء فيها.

وليس شرطاً في هذا اللقاء أن يجلسوا على طاولة مستديرة، فالجلوس على هذه الطاولة، لا يروق لأعداء الأمة، وهو ـ اليوم ـ لم يعد يروق أيضاً لعدد من دعاة الأمة! بسبب تضخم الشعور بـ (الأنا)، وتلك مأساة كبيرة أن يتوحد شعور (العُدَاة والدُّعَاة)!.

إنّ القدر الذي ينبغي أن يقتنع به الجميع هو أن لا يتقاطع العاملون للإسلام، وأن يعمل كل (عامل) في ضوء ما أداه إليه اجتهاده، فنحن جميعاً (دعاة لا قضاة) وأن لا يضع بعضنا في طريق بعضٍ الموانعَ والمتاريس.

لقد ثبت من خلال التجربة والواقع، أنه لا يملك أحدٌ منعَ أحدٍ من العمل للإسلام، أو لما فهمه من الإسلام، وإنّ أية محاولة لذلك لن نحصد منها سوى (الشوشرة) التي تشوش على عباد الله المؤمنين، وتساهم في (انحسار) كل العاملين، وتفقد الثقة بالدعاة أجمعين.

فنتيجة فقدان الاتزان بين الفعل ورد الفعل، سنقدم مزيداً من أدلة الإدانة

على أن (الإسلاميين) غير مؤهلين ـ بتوجهاتهم كلها ـ لقيادة الأمة، بسبب ضيق الأفق وتضخم الشعور بـ (الأنا) الذي يقود في النهاية إلى استبعاد لغة (الحوار) ودعوة (الوفاق) وإحلال لغة القوة محلّها كلما سنحت الفرصة، وسيقول الآخرون: إنْ كان هذا فعلهم فيما بينهم، فكيف سيكون فعلُهم مع غيرهم؟.

وأذكر مرة أن أحد العاملين للإسلام تضايق حين علم بوجود بعض العاملين للإسلام، ممن يعملون في جانب غير الجانب الذي هو عليه، قدموا إلى البلد الذي هو فيه من بلد آخر، وأذكر أنني حين دخلت على المجلس ومعي ذلك الضيف، ردّ التحية بطريقة باردة جعلتني أقول: هل حرَّك شفتيه برد السَّلام أم لا؟ ونسي أبسط مبادئ اللياقة الاجتماعية، وآداب الضيافة الإسلامية، التفتَ إليَّ قائلاً: لماذا جاؤوا؟.

شعرت كأنني متهم ضعيف، وكأنه جبّار عنيف.

قلت: حباً للدعوة في هذا البلد.

قال: لماذا اختاروا هذا البلد؟.

قلت: لا أدري، لكن حسب ما فهمت أنهم يخرجون على حسابهم، ويجمعون نفقات سفرهم من أعمالهم، ويخرج كل واحد منهم على قدر ما وفَّر، فمن وفر أكثر يذهب أبعد، ثم ما المشكلة في ذلك؟.

قال: ليذهبوا إلى أفريقيا . . جنوب شرق آسيا، لسنا بحاجة إليهم!.

لا أدري تماماً، هل يتضايق العاملون من بعضهم البعض؟ هل هي (قبلية / عشائرية) في العمل الإسلامي؟ إنني فيما أفهم وقتذاك ولا أزال، أنّ عمل كل واحد مكمل لعمل الآخر، وإنْ بدا له أنه يعمل مستقلاً عنه.

كنت أتوقع ترحيباً وضيافة لهذا الضيف، والبِشْرُ في وجه الضيف أجوَدُ القِرَى، ساءلت نفسي: لو قدّر لهذا الأخ أن تكون له مسؤولية عن أمر الدِّين، فماذا سيكون حظّ العاملين للإسلام من غير الجانب أو الرؤية التي هو عليها؟.

لا مناص ـ إذن ـ من أن تتسع صدورنا لفسح المجال لكل عامل، فما

يدرينا فقد يحالفه التوفيق، قد يقوده الإخلاص، إلى ما يطمح إليه الجميع ويرنو إليه كل مسلم.

إنّ اعتزازي بقناعتي لا يبيح لي فرضها على الآخرين، إنّ رغبتي في ترميم داري لا ينبغي أن تقوم على هدم دار جاري، فالكلُّ مجتهد، والله أعلم بمن له أجران أو أجر واحد.

ثم إنّ تعدد العاملين يضمن استمرار الدعوة الإسلامية التي هي أوسع من كل الجوانب وأهم وأشمل، فلو أن جانباً ما لظرف ما، حال دون عمله حائل، فسيواصل العمل جانب آخر، أو رؤية أخرى، وسيكون من يواصل بمثابة (الفئة) التي يتحيز إليها المجاهدون، أو (المظلة) التي يأوي إليها المُمْطَرُون.

إنّ كل من يبتعد عن هذا الفهم يحكم على نفسه بأنه غير مؤهل للعمل للإسلام، حتى في الجانب الذي هو فيه، لأنه لا يفهم الإسلام جملة، فكيف سيعمل في تفاصيله.

دُعيتُ ذات يوم إلى جلسة لطلبة وافدين في جامعة الموصل، وكانوا في جدل عنيف قديم، طُلِب مني أن أكون فيه (حَكَمَاً) وكان بعض هؤلاء يرى أن العمل ينبغي أن يبدأ من (القاعدة) ويرى بعض هؤلاء أنه ينبغي أنْ يبدأ من (القمة).

كان الحوار ساخناً، قَدَّرْتُ أني لن أزيده بإجابتي إلا (سخونة) فلما طلب مني أن أحكم اكتفيتُ بالقول: (لينطلق الجميع، ومن سيصل منكم أولاً، فسنكون معه).

من أين نبدأ؟.

ذلك الجدل البيزنطي الذي أفقد أربابَه حاضرة مجدهم التاريخية الروحية، بدلاً من الجدل، لنشمِّر عن ساعد الجد، ولنبدأ المسير من أي موقع نحن فيه، لسنا بحاجة إلى تغيير المواقع ـ رغباً أو رهباً ـ بقدر حاجتنا إلى الانطلاق من تلك المواقع، الانطلاق صوب الهدف المشترك، وإن لم نلتق في منعطفات

الطريق فسنلتقي في نهايته، ونجني جميعاً من ثمراته، لنتسامح ولنعف ولنغفر، وليشد بعضنا على يد بعض.

عطر الله ثرى ذلك القائل: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

يا لله ما أروعَها من حِكمةٍ.

إنها قاعدةٌ ذهبيةٌ.

لكن ـ بالله عليكم ـ خبروني أين هي محلّات الصَاغة؟.

شجاعة المغفرة

أجل إنهم (إسلاميون) لكنهم سلكوا من أجل الإسلام سبلاً ليست إسلامية، وعملوا للإيمان بوسائل غير إيمانية، أغشاهم (الحسد الوظيفي) فلم يعودوا يقدرون على التمييز بين العمل للإسلام من خلال شخوصهم، والعمل لشخوصهم من خلال الإسلام.

شَجَاعَةُ الْمَغْفِرَةِ

(1)

الذَّين يَنْظِمُونَ المعلقات في التسامح،

وليس لهم خيمة في سوق عُكاظ لإلقائها.

والذين يصوغون أناشيد العفو،

وليس لهم صوت ندي يَشْدُوْنَ بها.

ما الجدوى؟!

إذا عرفوا من المغفرة اسمها وما اسطاعوا فعلها،

مجَّدُوا قصصها لدى السلف في الماضي،

وضعفوا عن تمثُّلِها في الحاضر والمستقبل.

ما الجدوى؟!

إذا تكلموا بالمغفرة ولم يقدروا على سلوك سبيلها،

إذا شرحوها للناس على المنابر،

ولم تنشرح صدورهم بعد الصلاة لها.

ما الجدوى؟!

إذا رفعوا أصواتهم بها، ولم يرتفعوا إلى عليائها.

آذوا إخوانهم وشاكسوا أقرانَهم.

وأعاقوا كلَّ عامل للدين.

لأنه ـ ربما ـ يكون في المستقبل من المنافسين.

هم الأعلم، الأفهم، الأحلم، الأحكم، الأسلم.

لهم كلُّ صِيَغِ (أفعل) التفضيل في المكارم والفضائل.

ولغيرهم كلُّ صِيَغِ (أفعل) التجهيل في النقائص والرذائل، إذا خالفهم في رأي أو اجتهاد.

أرادوا لكلِّ مَنْ ينظر في المرآة، أنْ يرى صورهم قبل صورته، فإن لم يرهم فيها كسروها على رأسه، وقالوا: أصابه الغبش، فلا يصلح لخدمة الدين!.

تبلغ السعادة عندهم أقصاها حين يبلغهم ثناءُ النَّاس على أعمالهم، وذمُّ الناس لأقرانهم، وتضيق صدورهم، حين يُثْنَى على غيرهم، في جهد أو خير، فلا تطمئنُّ نفوسهم ولا تبرد قلوبهم حتى يمنعوا فاعل ذلك الخير، لأنه لا يطيب لهم أنْ يُكَالَ المديح لغيرهم، فإنْ لم يستطيعوا منعوا الخيرَ كلَّه لأنه ليس منسوباً إليهم.

والذي يُدهِشُ أنهم حين يُعاتَبون على تلك الأفعال يقررون أنهم فعلوها: خدمة للدين، ومصلحة للمسلمين، ولها أبوابها الشرعية، وتخاريجها الفقهية!!.

كأنَّ الله قد كتب لهم العصمة، وكتب على غيرهم الدحض والزَّلَّة.

(2)

أجل إنهم (إسلاميون) لكنهم سلكوا من أجل الإسلام سبلاً ليست إسلامية، وعملوا للإيمان بوسائل غير إيمانية، أغشاهم (الحسد الوظيفي) فلم يعودوا يقدرون على التمييز بين العمل للإسلام من خلال شخوصهم، والعمل لشخوصهم من خلال الإسلام؟!.

(3)

كانَ أحدُهم حانقاً على واحد من هؤلاء الذين آذوا أقرانهم، وانقلبت عندهم الوسائل إلى غايات، والغايات إلى وسائل، وكنا كلما ذكرنا صاحبه ذاك، تألم وقال: لا تذكروه فإنَّ قلبي لا يزال (يحمل عليه) لا أقدر على نسيان ما فعل.

لم يتحرك أحدٌ من أصدقاء الرجلين لتقريب بعضهم إلى بعض، كلُّ الذين تحركوا كانوا كـ (حمَّالة الحطب) لم يزيدوا الأحقاد إلا ضراماً، والآلامَ إلا آلاما.

دَعَوْتُهُ إلى العفو والمغفرة فأبى فقلت له:

كمْ خُطبةً ألقيتَ حول التسامح؟ وها أنت ذا تتردّد في أن تسامح.

كمْ مرةً ذكّرتَ النّاس بالمغفرة؟ وتأبى أن يذكّرك بها أحد.

لماذا نتردد ـ نحن الدعاة والخطباء ـ حين يطلب منا أن نترجم (الكلمة) إلى (فعل)، و(الخطاب) إلى (ممارسة)، و(الشعار) إلى (سلوك)؟!، بمعنى لماذا نتردد حين يطلب منّا أن نقوم بفعل ما ندعو إليه، ثم لا نكتفي بالاعتراف بأخطائنا، بل نكابر ونكابر حتى نبحث لأنفسنا عن مسوغات نزعم أنها (شرعية).

لماذا نتردد ـ يا أخي ـ حين يطلب منّا أن نقوم بفعل المغفرة ومنحها لآخرين اجترؤوا علينا، وأساؤوا إلينا، وسعوا في تشويه سمعتنا بسوء ظنٍّ، وافتيات في زمن ما.

قال: وتقول لي: اعفُ!!.

قلتُ: أجل فهذا ما تقوله أنت على المنبر، ويخشع له السامعون، وتدمع أعينهم حين تحدثهم به، وتروي لهم أخبار سلفنا الصالح في شأنه.

يا أخاه:

لا يَحْمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَسْمُو بِهِ الرُّتَبُ   وَلا يَنَالُ العُلَى مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

قال: لكن لا بد قبل أن أعفو أن آخذ حقي.

قلتُ: كيف؟.

قال: أنْ أقابل إشاعاته الكاذبة بإشاعات كاذبة، أنْ أشوّهَ سمعتَه كما شوّهَ سمعتي. أنْ....

قاطعته قائلاً: الإشاعات الكاذبة تقابل بالدعوات الصالحة في ساعات الإجابة، ورحم الله أحد الصالحين حين خاطب تلاميذه قائلاً: لا أرضى لأحد ينتسب إليّ وما يدعو لعدوّه.

قالوا: كيف؟.

قال: إنْ دعوتَ له، فاستجاب الله دعاءك انصلح فانعكس صلاحه عليك، ارتاح وارتحتَ، وإنْ دعوتَ عليه واستجاب الله لك، شقي فانعكست شقاوته عليك.

تابعت قائلاً: أما تذكر كمْ مرةً ذكرتَ على المنبر كيف قابل النبي ﷺ الإشاعات الكاذبة والكلمات اللاذعة، بالدعوات الصالحة فقال: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1].

تعرف يا أخي ما الذي يُعَرِّي تلك الإشاعات: إنَّ الاستقامة على المنهج هي الكفيلة بذلك قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2].

قال: هل تعلم بأنني إنْ سامحته سيدفعه ذلك إلى مزيد من الإيذاء.

قلتُ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾[3] و﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[4].

---

(1) رواه البخاري: 6/ 2539 بالرقم (6530)، ومسلم: 3/ 1417 بالرقم (1792).

(2) سورة هود: الآية 112.

(3) سورة الأنفال: الآية 62.

(4) سورة آل عمران: الآية 173.

قال: إنْ عفوتُ سخِرَ مني وتندر عليّ وقال: ضعيف.

قلت: أقسَمَ رسول الله ﷺ: «**وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً**»[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

ألا تريد مغفرة الله . . فهلّا غفرتَ للآخرين.

ألا ترجو رحمة الله . . فهلّا رحمتَ الآخرين.

يا من تطمع بعفو الله . . فهلّا عفوت عن الآخرين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]. وقال النبي ﷺ: «**الرّاحمون يرحمهم الرّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[5].

يا أخي تذكّر قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[6].

دمعتْ عيناه، فلقد كان الجرح غائراً، لكنه تماسك وبدا شجاعاً وأخبرني أنه سامح وعفا، رحم وغفر.

قبّلتُ رأسه وحيّيتُ شجاعته.

---

(1) رواه مسلم: 4/ 2001 بالرقم (2588).
(2) سورة فصلت: الآية 34.
(3) سورة الجاثية: الآية 14.
(4) سورة النور: الآية 22.
(5) رواه الترمذي: 4/ 323 بالرقم (1924).
(6) سورة الصف: الآيتان 2-3.

وفي اليوم التالي كان الرجلان على مائدة إفطار رمضاني في منزل أحد الأخوة الطيّبين وشهد الجميع ولادة الأُخوَّة من جديد، كان ذلك الآخر قد ندم على ما بدر منه، ثم إنَّ تلكم الأسباب التي كانت وراء ما بدر منه من إيذاء قد زالتْ عنه فلم يعد يقدر على شيء، فلا ندري ندمُهُ أتوبةً كانتْ أم عجزاً؟ . . لكن ذلك لا يهمّ.

لذلك لم نفتح صفحة العتاب، وإنما تحدثنا عن سيرة الرسول الأكرم ﷺ وختمنا الجلسة بالدعاء للمسلمين.

(4)

وبعد:

فلا بد من خطوة من هنا، وخطوة من هناك.

فانْ لم تتّسع المسافة إلّا لخطوة ليس إلّا، فلتكن خطوة المبادرة.

هذه شجاعة السماح، فلتكن إزاءها شجاعة الاستسماح.

هذه شجاعة المغفرة.

فأين شجاعة التوبة؟.

فإنْ أعرض هذا وأعرض هذا.

فخيرهما أشجعهما . .

وأشجعهما . . «**خَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»[1]:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(1) حديث شريف رواه البخاري: 5/ 2256 بالرقم (5727)، ومسلم: 4/ 1984 بالرقم (2560).

مرثية داعية شامي لم يتم مشروعه

ننسى أحيانا أنّ مَنْ يُجْرَح هو مَنْ يُقاتل، أمّا الذي لا يُجْرَحُ فهو الذي لا يُقاتل، إنّ مَنْ يُخطئُ هو مَنْ يجتهد، أمّا الذي لا يخطئ فهو الذي لا يجتهد، هل يمكن لمقاتل شجاع أن لا يُجْرَح ؟!!.

مَرْثِيَّةُ دَاعِيَةٍ شَامِيٍّ لَمْ يُتِمَّ مَشْرُوْعَهُ

كثيرٌ أولئك الذين لا عمل لهم سوى النقد والنقد اللاذع، يتقنون (فنَّ النقد) ولا يتقنون (فنَّ العمل) وما أسهل الأول وأحرج الثاني.

حين تجلس إلى أحدهم تجدُه لا يعرف سوى كلمات .. يلوكها باستمرار:

(جَنَحَ الدَّاعية فلانٌ، أخطأ الشيخ فلانٌ، كان ينبغي أنْ لا يفعل، ولماذا فعلَ ما فعل؟!، ولماذا قال ما قال؟!).

وليت الأمر يقف عند التصويب أو التخطئة، إذنْ لكان لفلان أجرٌ واحد، وللسادة الناقدين أجران، هذا على افتراض أنهم صائبون، وإنّما يتحوّل هذا الكلام في نهايته إلى ما لا علاقة له بالنقد من: (تجريح) و(غيبة) و(سوء ظن) و(تشهير) بل إلى (استعداء العوام) إلى تحميل للقضية أكثر مما تتحمل، وكلّ هذه كبائر يهوي بها قائلها أحياناً في نار جهنم سبعين خريفاً، وتلبيس إبليس حاضر في تلك الجلسة يحور تلك الآثام إلى (قُرَبٍ وطاعات) في نظر قائليها، وربّما مستمعِيها أيضاً.

وأحياناً يبدأ أحدهم ـ رغبة في إقناع المستمعين ـ فيعقد مقارنةً بين اثنين: أحدهما يثني عليه ثناءً عاطراً، والآخر يَلْذَعُهُ بكلماته الكاوية، ولو نظرنا إلى المَثْنِيِّ عليه، لوجدناه قد لزم قَبِيْعَةَ دارِه وفضَّل الدخول في عُزلة، لا تقطعها إلا إطلالات قليلة من إحدى نوافذ منزله ينظر من خلف الستائر بعين واحدة، فإذا لحظ من ينظر إليه أسدل الستارة سريعاً، ليلوذ بأريكة .. يجلس عليها .. يحتسي كوب شاي .. يطالع في كتاب .. ليتحدث بما قرأ بصوت خافت، عددُ مستمعِيه واحدٌ .. اثنان، لا أكثر، ينتظر أن تمطر السماء بأغصان الزيتون ووردِ النرجس وأن تتضوَّع الأرضُ بالمسك الأذفر وترتدي شقائق النعمان، ليخرجَ من قعر المنزل ويدعو آنذاك إلى الله سبحانه وتعالى، فهو يفضل أن يرقد

ـ رقد أهل الكهف من زمن (دقيانوس) إلى زمن (يندوسيس) ليصبح يومها عضاً لعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح، وهل يحتاج ؤلاء إلى واعظين؟!.

بينما الآخر رجل عدّ تلك العزلة انقلاباً على الأعقاب، فراراً من الزحف، عمل للإسلام في الزمن الصعب، سار بين الألغام، قرأ ما بين السطور، أراد ن يجمع حباتِ عقدٍ نفيس انفرط في أرض ذاتِ شوْكٍ، ابتكر للعمل الإسلامي طريقاً غير معهودة لدى العاملين، فَعَدَّ ابتكارَه ضرورةً تمليها عليه طبيعةُ العصر، وعَدَّها الآخرون خروجاً على قواعد عملهم، فبَشَّ في وجوه مَنْ لمْ يَبُشّ لَهُم قلبُه، عاشَ ألمَ النبي ﷺ وقد طرق عليه البابَ الأحمقُ المُطَاعُ، أعطى ثلثَ ثمَارِ المدينة المنوَّرَة لبني غطفان إتاوةَ حِمَايةِ حريةِ نشرِ الدَّعوة؛ لأنه لم يجد مسعدين.

اجتهد فأخطأ وأصاب .. أخفق ونجح .. ربح في (بدر) .. وخسر في (أحد) كانت عنده (حنين) وقبلَها (الأحزاب) ولم ينسَ مِن أوّل خطوة أنْ يتطلَّع إلى غد مشرق، إلى (فتح مكة) كان يعاتبه من لا يفهمه، فكان لا يزيد على القول: دعوني فقد أبرمت (صلح الحديبية) ومن كان منكم (أبو جندل) فليلحق بـ(أبي بصير) فـ(سيف البحر) مشهر، و(الأصغران) مني معكم: قلبي ولساني، وسيجعل الله لمن آوى ثمَّة الفرج، لا تنسوا أنه دخل في الإسلام بعد

(الحديبية) خلال عامين أكثرُ مما دخل فيه خلال تسعة عشر عاماً سبقته.

تلك قناعته، قد لا نوافقه، فلا حرج فلكل اجتهاده، وهو يعذرنا لكنه يرجونا أن لا نقف في طريقه حتى لا نفتّ في عَضُدِهِ، فقد تكون ثمرةُ اجتهاده ـ إنْ تمَّ المشروع ـ واحةً خضراء في أرض جرداء، تكون سلةً للخبز الإسلامي، من كان يصدِّق أن الوجوه السُّمْر تُبَيِّضُ وجوهَ المسلمين؟.

ننسى أحيانا أنّ مَنْ يُجْرَح هو مَنْ يقاتل، أمّا الذي لا يُجْرَح فهو الذي لا يقاتل، أنّ مَنْ يخطئ هو مَنْ يجتهد، أمّا الذي لا يخطئ فهو الذي لا يجتهد، هل يمكن لمقاتل شجاع أن لا يُجْرَح؟.

لو تتبعنا تأريخ المجاهدين في السِّلم والحرب لوجدنا جراحاتٍ وأيةُ جراحات!

(جراحات غائرة) ولولا أنه ليس من خلائق أهل الفضل تتبُّعُ تلك الجراحات لوجد القارئ على هذه الأسطر عدداً منها عن كبار المجاهدين المقبولين عند الأمة، عند كل فئة من فئات المسلمين، لمْ يَسلَمْ ـ إلا النادر ـ منها أحدٌ. وهي لهم شهادة على العمل، ووسام على الفداء، مادام حسنُ الظَّنِّ رائدَنا، وإخلاص النية ـ نسأل الله ـ رائدَهم.

فإذا قبِلْنا الماضين مع جراحاتهم فلنعذر المعاصرين، وإذا رفضنا المعاصرين فلنخش أننا إنْ اطّلعنا على جراحات السابقين أنْ نرفضهم أيضاً، فلا يبقى في تأريخنا مثال يُتأسّى، أو قدوة يفتخر بها، وإذا كانت العامّة لا تعرف ذلك لمحدوديّة الاطلاع، فإنّ المثقفين على معرفة تامّة بذلك، فالعصمة للأنبياء فقط، والخطأ سجيّة البشرية جمعاء، وهو ضريبة العمل؛ لذلك بَلْسَمَ النبي ﷺ جُرْحَ عمّار بن ياسر بكلماته الحانية، فكانت البَلْسَمَةُ له ولكل العمّارين من الدعاة الصابرين، وقبّل عمر بن الخطاب ﵁ رأس ابن حذافة لنظرته الصائبة، فكانت القُبْلَةُ له ولكل نظرائه من حكماء المجاهدين.

عجباً للناقدين يفضِّلُون القاعدين على المجاهدين، القاعدين في الظلال على الأسرّة، على المجاهدين في الرَمْضَاء على (فَرَسٍ عَرِيٍ) بلا سروج، يَحْسِبُوْنَ النِّقاط على المجاهدين، بينما لا يرون نِقاطاً على القاعدين، ونسوا أنه (قياس مع الفارق) فشتان بين مجاهد وقاعد، وشتان بين مجاهد في المقدِّمة، وآخرُ في السَّاق، وثالث في المؤخرة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[1].

عجباً . . عجباً . . لقد أصبح الفرار من المعركة أو القعود عنها سِمَةَ البطولة، وأصبح الثباتُ فيها مع جراحاتها في المقدمة دليلاً على (...) ما يحلو للآخرين تفسيرُه وتحليلُه، ولماذا؟ أمِنَ الجراحات التي فيها؟ أرادوا جهاداً بلا جراح! وهل يكون ذلك؟ عذرُ النَّاقدين أنهم غيرُ مجاهدين، فلو كانوا مجاهدين

(1) سورة النساء: الآية (95).

ـنهموا قول المصطفى ﷺ : «اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»[1].

يا ترى لو وقف الناقدون موقفَ المجاهدين هل كانوا يقدمون عطاءً أكثر؟

فإنْ كانوا يستطيعون ولا يفعلون فهم آثمون،

وإنْ كانوا لا يستطيعون فليتركوا لغيرهم أن يتموا التجربة،

ولا يقطعوا المشوار عليهم بألسنة حداد،

ليتركوهم يُتمّوا تلاوة (سورة الماعون)،

ولا يضطروهم أن يقفوا عند قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[2]

فما أرادوا الوقوف هنا قطّ،

لكن (السلق بالألسن) قطع (المشاوير المباركة)،

فاضطر التالي إلى (الوقف القبيح).

دعوهم يتموا التلاوة،

فـ (الماعون) في النهاية،

سيأكل منه الجميع.

---

(1) رواه البخاري: 5/ 2104 بالرقم (5213).

(2) سورة الماعون: الآية (4).

أزمة أموال
لا أزمة أفكار

هناك غياب جلي للتآزر الذي نهضت به الأمة في أمسها بين أولي الأموال وأولي الألباب، حتى غدا ـ اليوم ـ من يملك المال لا يملك الفكر، ومن يملك الفكر لا يملك المال .. وهذه هي المشكلة.

أَزْمَةُ أَمْوَالٍ لاَ أَزْمَةُ أفْكَارٍ

النَّاظر إلى الصِّراعات العالمية بين المؤسسات المالية الكبرى، يخالها ـ لأول وهلة ـ صراعاتٍ بين مال ومال، ولكن بقليل من التأمل يدرك أبعاد الصراع، وأنه بين فكر وفكر، وما المال إلا أحد أبرز وسائل هذا الصراع.

وتوظيف المال في كسب الصراع لا يقلّ أهمية عن أهميته في إقامة العمران، ونشر الفضيلة، ودعوة الخير، وحينما ننظر إلى اتجاه حركة المال نستطيع أن نحكم من خلال تلك الحركة على الفكر الموجِّه لها، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر.

وفي الآفاق القرآنية دعوة للارتقاء بنظرة الإنسان إلى المال، حيث سمّاه الحقُّ سبحانه «خيراً» فقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2].

وأثنى النبي ﷺ بقوله عنه «نِعْمَ» فقال: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[3] ومن ثَمّ فان توظيف المال عند المسلم لا يكون إلا في (الخير والصّلاح).

وكلا المصطلحين يبعث على الفضيلة والأمان، لذا بات لزاماً على المسلم ـ وهو المستخلَف في المال ـ أن يوظفه لما تدعوه إليه عقيدته، ويأمره به إيمانه، ولاسيما أن الله سبحانه قد أودع أرضه من الكنوز ما ليس عند الآخرين.

وإذا كانت الشعوب عادةً تفخر برصيد (الدولار والعملات الصعبة) كما

---

(1) سورة البقرة: الآية (181).

(2) سورة العاديات: الآية (8).

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده: 4/ 197، وابن حبان: 8/ 6 بالرقم (3210).

بـ.. فإن رصيدنا من (البترو دولار) و (المعادن النفيسة الأخرى) تلك التي لا تخضع قيمتها الحقيقية للاضطرابات السياسية ولا الحملات الانتخابية.

وتوظيف المال يكون عن طريق التكاتف، فلا يمكن لأية أمّة أن تبلغ غايتها من المجد من دون أن يساند بعضها بعضاً، وأن ينهض ذو الثَّراء بذي الثَّرى، وأن تعمل بروح الفريق الواحد لخيري الدنيا والآخرة.

ولا يمكن أبداً أن تظل راياتها شامخة وبناؤها شاهقاً إلا بالتكاتف، فمن خلاله قامتْ لأمتنا دول، وصُنع لها حضارات، وانحنى لها التاريخ إجلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[1] وقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[2] وقال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»[3].

والذي أود الإشارة إليه أن من صور التكاتف، أن يقدم كل مسلم ما يستطيع تقديمه للمجتمع، ومن ثَمّ تصب الجهود جميعاً في خدمة الصالح العام، فالعالم بعلمه، والأديب بأدبه، والطبيب بطبّه، والمهندس بعمارته، والغنيّ بماله، والقويّ بساعده.

ولعل أجمل الدعوات النّبويّة التي ترمي إلى ذلك ـ فيما أفهم ـ قوله ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»[4].

لقد كانت تضحية الصدّيق، وشجاعة عمر، وسخاء عثمان، وفداء علي، ودعاء سعد، وشعر حسان، وكتمان حذيفة، وما قدر عليه كلُّ فرد من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين، وقدّمه للدعوة، يعمل بعضها مع بعض،

(1) سورة آل عمران: الآية (103).
(2) سورة المائدة: الآية (2).
(3) رواه البخاري: 2/ 863 بالرقم (2314)، ومسلم: 4/ 1999 بالرقم (2585).
(4) رواه ابن ماجه: 1/ 55 بالرقم (154).

في حلقات مترابطة، لرفد المجتمع الإسلامي بما يقوده إلى الخير والصلاح.

ومن صور التكاتف التي لا ينبغي أن يخلو مجتمعنا منها، قيام الأغنياء بواجبهم في إنفاق المال خدمة للدعوة الإسلامية، ودعماً للجهاد بشَتّى صوره، فمن السيرة المطهرة نقف عند جيش العسرة، أضخم جيش في عهد الرسالة، حيث بلغ عدد أفراده ثلاثين ألفاً، كان من أبرز العوامل في هذا الجمع، سخاء الصحابة رضوان الله عليهم، حيث استجابوا لنداء النبي ﷺ في الدعوة إلى البذل والعطاء والجهاد بالمال، فقدموا المال على طبق من الإيمان، والحب لصاحب الرسالة العصماء ﷺ، فكان التخطيط والعمل، وكان الفوز والفلاح، وحيث تتكرر التجربة بين الأغنياء، وورثة الأنبياء، فتتصافح اليدان، تعود الثمرة على الأمة بالخير فتبنى المساجد، وتشاد المعاهد، وتشكل لجان مساعدة المعوزين، وتظهر المشاريع الخيرية على صعيد التعليم والإعلام، وعلى كل ما يعود بالفائدة على أمة الإسلام.

وقد برهن دعاة الأمة على تقديم ما يملكونه بسخاء لدعوتهم، فكيف لو كان المال وقفاً لمشاريع الخير والدعوة؟.

وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ أهدى الشيخ أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ جائزته البالغة (مليون درهم إماراتي) إلى مدرسته الدينية التي تخرج فيها، وتولى إدارتها ردحاً من الزمن.

وأهدى الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ جائزته المماثلة لمشاريع خدمية وخيرية في مصر.

ووعد الشيخ يوسف القرضاوي بأن يؤسس بمبلغ جائزته، مؤسسة لرعاية الموهوبين من علماء العالم الإسلامي في الاختصاصات اللازمة وهكذا.

يا ترى لو امتلك علماؤنا ودعاتنا من المال ما يملكه غيرهم من قساوسة الغرب، وأحبار اليهود، ورجالات الأديان الأخرى، فأي خيرٍ سنرى؟.

أذكر أن (جيمي سواكارت) الذي هُزم أمام الداعية العلامة (أحمد ديدات)

في المناظرة الكبرى ـ كما أطلق عليها ـ يمتلك من المؤسسات التعليمية والتوجيهية والإعلامية والاقتصادية ما يفوق الخيال، (أعني خيالنا نحن) فهو يخبر عن نفسه انه بحاجة يومياً إلى (مليون دولار) لسد نفقات مؤسساته.!

فهل يحلم أي من دعاتنا بعشر معشار هذا الرقم لا ليستأثر به؟ بل ليقدمه لدعوته الحبيبة.

ضمَّني مجلس ذات يوم مع أحد الأثرياء الذي كان يتحدث عن واقع العالم الإسلامي ثم طفق يثني بتجرد ـ على حد تعبيره ـ على أعمال رجالات الدين من غير المسلمين في الشرق والغرب، وكنت أجد من كلامه نبزاً من طرفٍ خفي لدعاة الإسلام لعدم قدرتهم على فعل ما يفعله الآخرون، ثم بدأ يعقد مقارنة بين إحدى النشريات الإسلامية وإحدى النشريات التي يصدرها من يثني عليهم موضحاً تفوق الأخيرة بألوانها الجذابة، وورقها الصقيل وخطوطها الأنيقة.

لم أجد بداً من أن أقاطع الرجل، لأضيف:

قلتَ: (هؤلاء يستحقون هذا الثناء) والذي يستحقه بناءً على كلامك أيضاً ـ بتجرد ـ الجهات التي تمولهم، أعني الأغنياء الذين يقدمون بسخاء لدعوة هؤلاء، فلولا ذلك السخاء لما كان هذا الإبداع في العمل، خذ مثلاً مجموعة اسمها (شهود يهوا) تطبع أكثر من (84) مليون نسخة من كتاب واحد بأكثر من (95) لغة، وعشرة ملايين نسخة من مجلة شهرية بأكثر من (54) لغة.

وفي مانيلا عاصمة الفلبين منظمة ميزانيتها (20) مليون دولار لتوزيع الأشرطة المسجلة في دعوتهم، وثَمَّةَ أرقام أخرى لا مجال لإيرادها.

فهل قدم أغنياؤنا لدعاتنا ما تقوم به الحجة عليهم؟.

وفي آخر الجلسة كان هناك أحد الدعاة يحاور ذلك الثري لغرض المشاركة في أحد مشاريع الخير.

اعتذر بقوله: الحقوق كثيرة وعندي عوائل!.

ولكم كنت أود أن يقدم شيئاً يدفع به حرج ذلك الداعية حين رده، حتى لو

كانت كلمة طيبة، أو وعداً بالمشاركة، أو عطاءً يسيراً، لكن قال ما قد قرأتم.

هذا هو واقع أمتنا!.

إنه الانفصام النَّكِد بين قدرات التخطيط، وقدرات التنفيذ، فهناك غياب جلي للتآزر الذي نهضت به الأمة في أمسها بين أولي الأموال وأولي الألباب، حتى غدا ـ اليوم ـ من يملك المال لا يملك الفكر، ومن يملك الفكر لا يملك المال.

هذه هي المشكلة فمن بيده المال ليس في رأسه الأفكار، ومن في رأسه الأفكار ليس في يده المال.

بل هذا هو سرّ تفوق الآخرين علينا في عالم اليوم.

الذي تصافحت الأيدي عندهم.

واختلفت الأيدي عندنا.

فليست أزمة العمل عندنا نقصاً في الفكر، ولا ضعفا في الأداء.

فأزمتنا أزمة إمكانات لا أزمة طاقات.

أزمة وسائل لا أزمة دوافع وغايات.

أزمتنا ـ أي سادة ـ

أزمة أموال لا أزمة أفكار.

الإفتاء الجماعي
سلوك حضاري

لقد أُريد للإفتاء أن يكون سبباً لحل مشكلات الناس، لا أن يكون سببا من أسباب مشكلاتهم، ففي غياب مجالس الإفتاء الجماعي برزت ظواهر (سلبية) كانت أحياناً تصيب في (الصميم) إصابات (قاتلة).

الإِفْتَاءُ الْجَمَاعِيُّ سُلُوْكٌ حَضَارِيٌّ

أصبحت (المجامع الفقهية) التي تقوم بوظيفة (الاجتهاد الجماعي) بديلاً عصرياً مناسباً، في ظلِّ غياب (المجتهد المطلق) المستقل بالاجتهاد، وليس فحوى هذه المجامع بِدْعَاً في الأمة، أو وافداً غريباً عليها، فلو أننا تأملنا ما كان عليه أسلافنا لوجدنا أن (الاجتهاد الجماعي) كان معمولاً به لدى الأئمة الكبار في أوج أعصر الازدهار العلمي.

وعلى سبيل المثال: مدرسة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ﵁ كانت تمثِّل (مجمعاً فقهياً) و(اجتهاداً جماعياً) فالإمام والصاحبان ومَنْ معهم من التلامذة في حلقات متداخلة، تُعرَضُ القضية فيدلو كل تلميذ فيها دلوه، وهكذا حتى تصل إلى حلقة الإمام، وقد يتفق الجميع، أو قد يختلفون، وتوثق المسألة مع الإجماع عليها، أو الاختلاف فيها، وينسب الرأي إلى قائله.

وإذا كان ثمَّة المجامع الفقهية المعاصرة على المستوى الإقليمي أو العالمي، فإننا بحاجة إلى قريب من ذلك على المستوى المحلي، فعلى غرار ذلك يمكن لنا أن نؤسس ما يطلق عليه بمجالس (الإفتاء الجماعي) في كل مدينة، فهي الأخرى ضرورةٌ ملحةٌ ولاسيَّما في القضايا الشائعة في مدينة دون أخرى، وتمس الحاجة فيها إلى إجاباتٍ سريعةٍ ودقيقةٍ، أو ما يتعلق منها بقضايا (فِرق النكاح) عامة، و(الطلاق) خاصة.

إن اقتصار (الإفتاء) على ما هو معهود بحاجة إلى إعادة نظرٍ (مراجعة وتقويم) فقد يصعب على المفتي ـ بمفرده ـ الإحاطة بجوانب القضية المعروضة، لأن تلك القضايا تعقَّدتْ بتعقد الحياة، وقد يُلْحِن المستفتي بحجته، وكما هو معلوم أن مَظَنَّة الصواب مع الاثنين أكثر من الواحد، ومع الثلاثة أكثر وهكذا، فيأتي الجواب على لسان المفتي مجانباً للصواب.

وقد يكون الجواب (حكماً) فتضيع معه حقوقٌ، ويظلم فيه آخرون، وحين ينبس (المظلوم) ببنت شفة، تتعالى عليه الأصوات: أتعترض على حكم الله؟! إنما اعتَرَضَ على حكم الله، ولكنّه اعترض على تلك الإجابة التي لم يستطع صاحبها أنْ يحيط بالقضية من كل أطرافها.

في أحايين كثيرة، وكثيرة جداً، لا يجوز للمفتي أن يصدر حكمَه ـ حين يطلب منه الحكم ـ حتى يستشير ذوي الرأي وأهل الخبرة، ففي المعاملات التجارية هناك من نسميهم (أهل الصنف) الذين هم أخبر بالعرف التجاري منه، والعرف بضوابطه ـ كما هو معلوم ـ مصدر تشريعي، ومن قواعدنا الفقهية: (المعروف عرفا كالمشروط شرعا)[1] ومنها: (المعروف بين التجار كالمشروط بينهم)[2].

وقد يصبح من الضرورة في قضايا الطلاق ـ مثلاً ـ استضافة (أطباء متخصصين بالأمراض النفسية) أو طلب مشورتهم تحريرياً لتشخيص حالة المطلِّق النفسية التي قد تعين المفتي في الوصول إلى الفتوى، فتنقذ الأسرة من التشرُّد والضياع.

لهذا وأمثاله كان لابد من وجود مجالس للإفتاء في كل مدينةٍ تجمع المعروفين من أهل العلم، تحتفظ هذه المجالس بسجلاتٍ على شكل (محاضر) وفي حالات الطلاق تثبت تلك الحالات حسب الأسماء على الحروف الهجائية، بحيث لو تكرر منه الطلاق فإن أولياته معروفة لدى المجلس، ومن الضروري جداً الإفادة من (الحاسوب) لتسهيل المهمة.

هذا كله إذا أُريد أن يبقى (الإفتاء) سبباً لحل مشكلات الناس ولا يغدو سبباً آخر من أسباب مشكلاتهم، ففي غياب هذه المجالس برزت ظواهر (سلبية) كانت أحياناً تصيب في (الصميم) إصابات (قاتلة).

---

(1) ينظر شرح القواعد الفقهية، للشيخ الزرقا: ص (183).

(2) المصدر السابق: ص (184).

وإنْ أنسى فلا أنسى يوم جاءتني (إحداهن) قبل قرابة عقدٍ من الزمن، تستفتي في أمر طلاقها، إذْ طلقها زوجها ثلاثاً ؛ فذهبا يستفتيان، فقيل لهما : إنها بانت منه بينونة كبرى، ولا رجعة له إليها، وبعد انقضاء العدة، تزوجت.

لكن بعد حين حدثَ أن زوجها الأول استفتى فقيل له: إنَّ طلاقك الأخير لم يقع. فذهب ليعيدها إليه، وبعد (شجارٍ) و(خصام) ذهب الزوجان والزوجة، إلى ذلك (المفتي) فأخبرهم بعدم وقوع الطلاق الأخير، وأنَّ العقد الثاني باطلٌ لكونها لا تزال في عصمة الأول، وبعد ذلك عادتْ إلى الأول، وبعد مدة استفتى زوجها الثاني مفتياً آخراً أخبره بأنها زوجته، ولا يحلّ لها العودة إلى الأول.

بعد كل هذا جاءتني الزوجة تستفتي، فقلت في نفسي: ماذا سأفعل هل أضم صوتي إلى هذا الفريق أو ذاك؟! ولن أجيب حتى أستدعي ثُلَّةً من أهل العلم، فمن الأمراض ما يستقلّ الطبيب بعلاجه، ومنها ما يحتاج إلى فريق من الأطباء (لجنة استشاريين/ Meeting)، وحين اجتمع مشايخي وإخوتي من أهل العلم واستمعنا إلى الجميع، توصلنا إلى أنها لزوجها الأول، ولا أدري بعد ذلك ما الذي حل بالجميع.

ومِنَ المضحكات أنه يوم حدث اختلال في سعر الصرف للدينار العراقي قبل سنوات عدة وهو ما سمِّي يومئذٍ (بالنزول) كان من المفتين مَنْ يفتي بمعادلة الديون والحقوق المتعلقة بـ (الذهب)، وبعضهم يقول: (دينارٌ بدينارٍ) وكان الغرماء يطرقون أبواب العلماء لفض نزاعاتهم، وكان بعض هؤلاء على قدرٍ كبيرٍ من الدهاء، إذْ استغلّ خصومَه أبشعَ استغلال، فإذا كانت مصلحته بمعادلة ذلك بالذهب أقنعهم بالذهاب إلى الشيخ (فلان)، وإن كانت مصلحته باعتبار(دينار بدينار) أقنعهم بالذهاب إلى الشيخ (فلان)، فتارةً هنا وتارةً هناك، على قاعدة من يقول: (حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله!!!) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا جاء عيد الفطر المبارك فإنَّ الناس يسمعون في تقدير الفطرة ما يجعلهم في حيرةٍ إذ يتضارب المفتون في تقديرها.

يا ترى أما ينبغي أن يوضع حدٌّ لهذه (الفوضى) في عالم (الفُتيا)؟.

أما ينبغي أن يكون أهل الفتوى حضاريين؟.

أما ينبغي أن ينزل المفتون قليلاً من ذلك (البرج العاجي) فيجتمعون على ـ ـد والعلم من أجل مصلحة الأمة، فيجلس علماء كل مدينةٍ جلسةً أسبوعيةً ـعين، ويعرفها الناس فيقصدونهم في مجالسهم، ويأخذون ما يبعث الاطمئنان ـيحفظ الحقوق لأربابها؟ بل إنّ هذه المجالس ستعين القضاء على حل كثيرٍ من ـمنازعات التي تنوء بها أروقة المحاكم، فقد يكون الإفتاء من باب (الصلح) ـبل أن تصل المحاكم، أو من قبيل (التحكيم) بعد أن تصلها كذلك[1].

وفي غياب هذه المجالس برز من يتصدى للفتوى وليس من أهلها، لا من قريب ولا من بعيد، وإذا كان الإمام جعفر الصادق ﷺ يقول: اهربْ من الفتيا هروبك من الأسد، فإنه ظهر مَن يهجم على الفتيا هجوم الأسد على الفريسة، فقد يسأل إمام المسجد بعد الصلاة فيبادر أحد المصلين للإجابة ـ أحياناً ـ قبل تمام السؤال؛ لأنه لا يدرك خطر ما نبه عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام: **أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا، أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»**[2].

لقد برزت فتاوى المسنين في العمر، الذين لا يعرفون إلا أنّ كل شيءٍ (حلالٌ) تدفعهم (العاطفة) بحجة (إن الدين يسرٌ).

وفتاوى أحداث الأسنان الذين لا يعرفون إلا أن كل شيءٍ (حرامٌ) يدفعهم (الحماس) بحجة (إن الدين متين).

---

(1) راجع مجلة الأحكام العدلية: الصلح (1531 - 1560)، والتحكيم (1841 - 1851) كما جاء في قانون المرافعات المدنية العراقي ذي الرقم (83) للسنة 1969 وتعديلاته المواد (252) إلى (276) فقد جاء في الباب الثاني: التحكيم؛ يجوز الاتفاق على التحكيم في نزاع معين، كما يجوز الاتفاق على التحكيم في جميع المنازعات التي تنشأ من تنفيذ عقد معين. ينظر قانون المرافعات المدنية، إعداد المحامي فؤاد زكي عبد الكريم، منشورات مكتب الصباح.

(2) رواه الدارمي: 1/ 69 بالرقم (157).

ومن المفارقات أنِّي استقللتُ ذات يومٍ سيارة أُجرة (تاكسي) فسألني سائقها سؤالاً فقهياً، فلما أجبته:

قال: سألت قبلك وكان الجواب عكس ما قلت.

قلت: فما هو الجواب؟.

واستمعت منه إلى إجابة (عجيبة غريبة).

قلت له: ومَن الذي سألت؟.

قال: لا أعرفه.

قلت: إذاً كيف سألته؟.

قال: كان الراكب يومها رجلاً عنده لحية.

قلت: يا أخي هل أن وجود اللحية علامةٌ على كون الرجل فقيهاً؟ إن هذه الإجابة لا أعرفها إطلاقاً.

وحين عدت إلى مكتبتي بحثت فلم أجد تلك الإجابة فيما بين يدي من مصادر ومراجع، ثم استعنت بآخر تقنيات القرنين العشرين والحادي والعشرين، فعمدت إلى ما توفر لدي من أقراصٍ ليزريةٍ، وبرامجياتٍ موسوعية في الفقه فلم أجد لذلك أصلاً، قلت: يا سبحان الله، كيف وصل الحال بنا أن يجيب مَنْ لا يعلم، وأنْ يقبل جوابه من هو مثله.

وليس عجبي من المجيب بأشد من عجبي من السائل، كيف استساغ أن يسأل من لا يعرفه، والإمام ابن سيرين ـ عطّر الله ثراه ـ يقول: الفقه دين فانظروا عمَّنْ تأخذون دينَكم[1].

ولو راجعنا كتب أصول الفقه في مباحث (الاجتهاد) أو (صفات المستدل) فلن نجد فيما بينها من صفات المجتهدين أن يكون أحدهم ذا (لحية أو شارب).

(1) مقدمة صحيح مسلم: 1/ 14.

إنّ أحدنا اليوم إذا مرض فإنه يبحث عن أمهر الأطباء، وقد يشد الرحال من مدينته إلى العاصمة، بل قد يغادر القطر بحثاً عن طبيب لسلامة بدنه وحفاظاً على صحته، وإذا أردنا أن نبني داراً أو عمارةً بحثنا عن أرقى المهندسين خبرةً وأشهرهم صيتاً، ولكن حين يتعلق الأمر بالدين فلا يأبه الكثير أن يأخذوه من أي حي، حتى لو كان (راكبا، رجلاً عنده لحية).

هل أنَّ دنيانا غدتْ أعزَّ علينا من ديننا؟ إنّ مثل هذا السائل كمثل مَن دخل مستشفى بصحبة مريضه، فوجد عدداً من العاملين فيها يرتدون أردية بيضا صداري بيض) فقد يكون أحدهم طبيباً اختصاصيا أو استشاريا أو مقيماً، وقد يكون مضمداً أو معاوناً طبياً، أو حتى ربما (عاملا) أراد أن يتشبه بذوي الاختصاص، فهل يسوغ لنا أن نأذن لكل ذي صدريةٍ بيضاءٍ أن يجري لمريضنا عمليته الجراحية) أو حتى فحصه على أقل تقديرٍ، إطلاقاً لا نرضى بذلك، (لقد أعطينا لكل ذي اختصاص حق اختصاصه ولم نعط لأهل الشرع حق اختصاصهم).

وهكذا يمكننا أن نلخص مشكلات غياب مجالس الإفتاء في نقاط :

1 ـ عدم دقة الفتوى.

2 ـ تضارب الفتاوى.

3 ـ التصدي للإفتاء من غير أهله.

نقول هذا عسى ألّا يُسْتَفْتَى كلُّ أحدٍ بمجرد أن عنده (صدرية بيضاء) أعني لحية سوداء أو حتى بيضاء . . وعسى أنْ تجد فكرةُ الاجتهاد الجماعي لها طريقاً في مجتمعاتنا.

الإسراء والمعراج
بين الحقيقة والخرافة

إنّ من أشد الأمور خطراً على العقل والدين أنْ تختلط الخرافة بالدين في أذهان كثيرين اختلاطاً لا يتميّز به أحدهما عن الآخر.

الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ لِابْنِ عَبَّاسٍ بَيْنَ الْحَقِيْقَةِ وَالْخُرَافَةِ

إنّ من أشد الأمور خطراً على العقل والدين أنْ تختلط الخرافة بالدين في أذهان كثيرين اختلاطاً لا يتميّز به أحدهما من الآخر، ويغدو هذا المزيج عقيدةً لدى العامة يدينون لله بها، يرجون بركاتها في الدنيا وثوابها في الآخرة، وينكرون على من يصحح لهم ذلك الخطأ، أو يحارب تلك الخرافة التي يعدّونها عقيدةً من أسس الدين، ويعدون مَنْ ينكرها كمن ينكر حقائق القرآن القاطعة وأحاديث النبي ﷺ الصحيحة.

ولطالما عانينا ـ معاشر الدعاة ـ من هذه الإشكالية، فنحن بين من يعتقد بذلك المزيج إلى الحد الذي يهاجم فيه كل داعيةٍ ناصح أراد إظهار الحق وبيان الصواب من خلال دحض تلك الخرافة (الفرية)، وبين آخر موجهٍ يشتدّ في توجيهه على الناس حتى ينفر منه الصيد، ويجفل الظباء، فيغدو أسلوبه مانعاً من قبولهم لبيان الداعية الرشيد والموجه الحكيم.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

بعض ما جاء في كتاب (الإسراء والمعراج) المنسوب لابن عباس (رضي الله عنهما)، فقد كثرت الروايات عن الصحابة الكرام في معجزة الإسراء والمعراج كثرةً لم تسلم من الضعف والخلل، ومن الصحابة على وجه الخصوص: علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأنس بن مالك (رضي الله عنهم جميعاً)، وحوَتْ كتب التفسير هذه المرويات على أنها من قبيل التفسير بالمأثور في سورة الإسراء، وسورة النجم على نحو أقل.

ومن اللافت للنظر أن أنس بن مالك وابن عباس كانا من أكثر من نسب إليهما من مرويات الإسراء والمعراج، لكن المرويات إلى أنس بن مالك كانت

الأكثر، حتى بدا أنس بن مالك في هذا الشأن أكثرهم له شرحاً وأبسطهم فيه قولاً[1].

وأما ابن عباس فإن غالب الرِّوايات المنسوبة إليه خاليةٌ من الإسناد، وفي هذا يقول الإمام الشافعي: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهاً بمائة حديث»[2].

ويعقب الدكتور الذهبي على ذلك بقوله: «وهذا العدد الذي ذكره الشافعي لا يكاد يذكر بجوار ما روي عن ابن عباس من التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير النقلي من الروايات المكذوبة المصنوعة»[3].

ولقد قُبِلَتْ هذه المرويات - والتي غدت تطبع وتوزع على أنها كتاب الإسراء والمعراج للصحابي الجليل ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام، حبر الأمة عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) - وأصبح لها رواج كبير في بلاد المسلمين ولاسيّما في بلادنا.

ولعلّ أهم الأسباب لهذا الرواج:

1 ـ كونها تبحث في معجزة الإسراء والمعراج والتي خص الله بها نبينا محمداً ﷺ من دون سائر الأنبياء، مما جعل لها مكانتها المتميزة في نفوس المسلمين.

2 ـ نسبة هذه المرويات إلى حبر الأمة ابن عباس (رضي الله عنهما) مما جعل لها قبولاً في أوساط المسلمي.

ومما يقتضي بيانه شرعاً ما في هذه المرويات من الطامات والخرافات التي لا تصح ديناً، ولا تقبل عقلاً على الرغم من أنها صيغتْ بصياغة توهم قارئها بأنها من الدين، فكانوا بين معتقدين بتلك الضلالات أو بين منكرين لها،

---

(1) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (4/ 274).
(2) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: (2/ 189).
(3) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: (1/ 156).

وبالتالي فإن إنكار من أنكرها إنكارٌ ـ حسب ظنه ـ لعقائد الدين، التي غدت بالية ـ حسب اعتقاده ـ لا تواكب العصر وتخالف العلم الحديث، وكلتا الحالتين خطر على الأمة.

وأحب أن أنقل هنا ـ بإيجاز وتصرف ـ ما حبره يراع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث)، وهو يقص علينا أن ثُلَّةً من العوام اجتمعوا في بيت أحدهم بمناسبة الإسراء والمعراج، وبدأ أحدهم يتلو عليهم هذه المرويات من كتاب (الإسراء والمعراج لابن عباس) واستمع الحاضرون إلى أنَّ السماء الأولى من نحاس، والثانية من حديد، والثالثة من ذهب أو قصدير، وأنَّ القمر معلق في إحدى هذه السماوات، وأما الشمس ففي السماء الأعلى منها[1] . . وهكذا، فلم يتمالك ابنُ صاحبِ الدار ـ الذي اجتمع هؤلاء لديه وكان على حظ لا بأس به من الثقافة العامة بيد أنه قليل البضاعة من الثقافة الدينية ـ نَفْسَهُ فقاطع القارئ قائلاً: كفى تَدْجِيْلاً، فثار عليه الحضور ورموه بالإلحاد وتكذيب ما جاء به الرسول ﷺ.

لم يجد بداً من الرد عليهم إلا أن يقول: إذا كان هذا ما يقوله الرسول فأنا غير مستعد أن أبيع عقلي في سبيل الإيمان بذلك. طُرِدَ الشاب من داره، وخرج وقد استقر في عقله أن الدين مجموعة خرافات وأوهام.

يقول الشيخ البوطي: أقبل هذا الشاب نفسُه ذات يوم يُلاحيني في أمر الدين من أساسه، وراح يخبط ويهذي ويقول: إن ديناً يقول بأن القمر أو الشمس في السماء الرابعة، وإن السماوات من معدن وذهب لا يمكن أن أؤمن به.

فقلت له: ولكن من أين لك المخطط الجغرافي والتحليل الكيميائي لأمر السماوات وأفلاكها؟!.

قال: من كتاب المعراج.

قلت: أي معراج؟!.

---

(1) الإسراء والمعراج لابن عباس: ص7.

قال: معراج ابن عباس.

وهنا أدركتُ سرَّ ما به من إلحاد، ومصدر ذلك، فقلت له بهدوء: ولكن هل ترك عبد الله بن عباس وراءه أيَّ مؤلفٍ أو كتابٍ[1]؟!.

ومما يؤسف له أن بعض أئمة الجمعة أخذوا يعتمدون هذه المرويات مصدراً يصدرون عنها في الحديث عن الإسراء والمعراج كلما عادتْ ذكراه، بل إني وجدت بعض الكراريس المؤلفة في هذا الموضوع قد اعتمدت كلياً أو جزئياً على تلك المرويات، ولقد شكا إليَّ بعض المطَّلِعين من الأئمة والخطباء من صعوبة إقناع المصلين في مسجده بأن مرويات الإسراء والمعراج الواردة في الكتاب المنسوب لابن عباس، لا أساس لها من الصحة في الجملة، لشهرة هذا الكتاب وكثرة طبعاته منذ أكثر من نصف قرن[2]، ولأن ما ورد فيه من تفاصيل ممتعة قد طرقتْ مسامعَهم مراراً وتكراراً من كل مَنْ سبقه في العمل في المسجد، فألِفُوا ذلك، وأصبح من الصعوبة بمكان زحزحتهم عنه.

ومن الروايات الواردة في هذا الكتاب مما لا أصل له في كتاب ولا سنة ما يأتي:

1 ـ وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، له ألف رأس، في كل رأس ألف وجه، في كل وجه ألف ألف فم، في كل فم ألف ألف لسان يسبح الله تعالى بألف ألف لغة لا يشبه بعضها بعضاً، من جملة تسبيحه يقول: سبحان من ألف بين الثلج والنار، يا من ألف بين الثلج والنار، ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، والملائكة تقول آمين، فقلت: من هذا يا أخي جبريل، قال: هذا الملك المكفل بأكتاف السماوات، وهو أنصح الملائكة لبني آدم.

2 ـ ثم رأيت ملكاً عظيم الخلقة والمنظر، قد بلغ قدمه تخوم الأرض

(1) تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث للدكتور البوطي: ص111.

(2) ودور النشر تجني من ورائه الأرباح المادية الطائلة، ولا يعنيها ما يعتري الجيل بسبب ذلك من تضليل وأوهام.

السابعة، ورأسه تحت العرش، وهو جالس على كرسي من نور، والملائكة بين يديه وعن يمينه وعن شماله ينتظرون أمر الله عز وجل، وعن يمينه لوح، وعن شماله شجرة عظيمة، إلا أنه لم يضحك أبداً، فقلت: يا أخي يا جبريل من هذا؟ فقال: هذا هاذم اللذات ومفرق الجماعات، ومخرب البيوت والدور، ومعمر القبور، وميتم الأطفال ومرمل النساء، ومفجع الأحباب ومغلق الأبواب، ومسود الأعتاب وخاطف الشباب، هذا ملك الموت عزرائيل[1].

3 ـ قال النبي ﷺ: فوضع يده - يعني يد الله عز وجل - بين كتفي ولم تكن يداً محسوسة كيد المخلوقين، بل يد قدرة وإرادة، فوجدت بردها على كبدي، فذهب عني كل ما رأيته من العجائب، وأورثني علم الأولين والآخرين[2].

وواضح أن الصنعة على الأحاديث ظاهرة، ولاسيما الحديث الثالث فقد جاء فيه قوله: (ولم تكن يداً محسوسة . . . الخ) وهذا من موضوعات علم الكلام التي جرى فيها الخوض متأخراً عن عصر الرسالة والصحابة، والصحيح أن هذا كان رؤيا منام رآها النبي ﷺ وليس ما حدث ليلة الإسراء والمعراج[3].

4 ـ ومن ذلك ما جاء في هذه المرويات في بيان ما أعقب حادثة الإسراء والمعراج: . . . والمسلمون حوله ﷺ وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم، وأسلم في ذلك اليوم أربعة آلاف رجل.

ومن الواضح أن هذا الكلام مخالف للصحيح الثابت من الأخبار، فالمروي بهذا الصدد أن عدداً من المسلمين ارتدوا في صبيحة تلك الحادثة، فقد جاء في الروايات التي أوردها الطبري وابن كثير: (فافتتن ناس كثير وكانوا قد صلوا معه) وفيها: (فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل)[4].

---

(1) الإسراء والمعراج لابن عباس: ص9.
(2) المصدر السابق: ص23.
(3) ينظر مسند الإمام أحمد بن حنبل: (2/ 170).
(4) ينظر جامع البيان للطبري: (15/ 111)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: (3/ 16)، والحديث رواه النسائي في سننه الكبرى: (6/ 377) بالرقم (11283).

ولا أدري من أين أتى بهذا الرقم الكبير جداً (أربعة آلاف رجل).

وممن وجدته قد صرح بالوضع الحافظ السيوطي، إذ ذكر في كتابه (تدريب الراوي) لدى الكلام عن الحديث الموضوع ما نصه: «الثالث: من الموضوع أيضاً . . . . . . والحديث الطويل عن ابن عباس في الإسراء، أورده ابن مردويه في تفسيره، وهو نحو كرّاسين. . . »[1].

ولعلَّ من أغرب وأعجب ما يسجّل، أن رجلا كالدكتور لويس عوض - وهو باحث معروف - يدعو إلى اقتناء هذا الكتاب، واعتماد هذه المرويات المنسوبة إلى ابن عباس في الإسراء والمعراج، ويدعو إلى تداولها والإفادة منها[2]!. ولا أدري كيف فاتته حقيقة هذه المرويات.

وفي ختام هذه الكلمات أقترح جملة من التوصيات أجدها في غاية الأهمية لهذا الموضوع لنتجاوز الخلط فيه بين الحقيقة والخرافة، وبين الدين والأوهام:

1 ـ تأليف كتب معاصرة جامعة لمعجزة الإسراء والمعراج، تعتمد ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة، مع ملاحظة المعطيات العلمية المعاصرة من خلال عرضٍ مقبولٍ عقلاً وشرعاً.

2 ـ تكثيف دراسة مرويات الإسراء والمعراج في محاولات نقدية جادة، وغربلة ما فيها من (غرابة مرفوضة أو نكارة أو شذوذ).

3 ـ صياغة هذه الحادثة الكريمة بأسلوب أدبي مشوّق، مرصَّع بآي من الذكر الحكيم وأحاديث النبي ﷺ بألفاظ سهلة الفهم، حلوة النغم، لأنَّ الناس يألفون هذا النمط عادة، ويكون ذلك بديلاً عما اعتاد الناس قراءته في الاحتفالات الدينية ومما هو غير صحيح نقلاً وعقلاً.

4 ـ إسناد كتاب الإسراء والمعراج المنسوب إلى ابن عباس إلى أحد طلبة الدراسات العليا في الكليات الإسلامية لتحقيقه تحقيقاً أكاديمياً، ذاك أنَّ بعض

(1) تدريب الراوي للسيوطي: (1/ 158).
(2) فقه السيرة للدكتور البوطي: ص112.

الروايات التي وردت فيه صحيحة، لكن التمييز بين الصحيح والسقيم عسير على غير ذوي الاختصاص.

5 ـ حث وزارتي الأوقاف والإعلام، وأصحاب المكتبات العامة، والعاملين في تجارة الكتب، على منع طبع كتاب (الإسراء والمعراج لابن عباس) وتداوله لما فيه من الإساءة إلى ديننا الحنيف.

رسالة مفتوحة
إلى طلبة العلوم الشرعية

وما زال في كل وقت يكون العالِم
إماماً في فنٍّ مقصراً في فنون.

رِسَالَةٌ مَفْتُوْحَةٌ
إِلَى طَلَبَةِ الْعُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ

كثيراً ما أرثي لعدد من طلبة العلوم الشرعية، ممَّن يتحرقون لطلب العلم ولكنهم لا يجدون الطريق معبدة إليه، أُصَعِّدُ النظرَ فيهم وأصوِّبه فأراهم يتأبطون كتبهم صباح مساء يبحثون عن شيخ يمنُّ عليهم بدرس، أو يقدمه لهم منحةً، يبتغي المثوبة من الله سبحانه ليس إلا.

أرثي لهؤلاء الأحباب لأسباب عدة، منها: أنه لا تزال تسيطر عليهم فكرة أن أحدهم يمكن أن يكون (عالماً بكل شيء)، (عالماً) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، و(بكل شيء) على نحو يكون فيه فقيهاً من الطراز الأول، متكلماً لا يبارى ولا يجارى، صرفياً، بلاغياً، أصولياً، مفسِّراً، شاعراً، ناثراً، أديباً، منطقياً، مقرئاً على القراءات العشر متقناً لقواعدها وفرشها، فرضياً لغوياً، ابن هشام في السيرة، العميدي في آداب البحث والمناظرة، ابن رشد في الحكمة والمقولات العشرة . . . و. . . و. . . الخ.

كلُّ هذا وتفاصيله أكثر . . يريد بعض إخواننا من الطلبة أنْ يتحقق في أشخاصهم، ولا أعرف أنه اجتمع مثل هذا في تاريخنا لأحد، ولو ذهبنا نفصل (علماً) واحداً من هذه العلوم الشرعية لضاق بنا المجال، فلو أخذنا (واحداً) منها لوحده انقضت أعمارنا ولم نحط به.

فالفقه ـ مثلا ـ فيه المذاهب: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، وفيه بقية المذاهب الأخرى من فقهاء السلف والخلف، ولكلِّ مذهبٍ قواعدُه وفروعه ومصطلحاته ورجالاته وتعدد مدارسه وترجيحات المتقدمين والمتأخرين في المذاهب ونحو ذلك . . ثم هناك فقه المعاملات الذي اتسع في هذا العصر

حيث أصبحنا بحاجة إلى (فقهاء النفس) يعيشون (العصر) ليحلوا لنا مشكلات من المعاملات وأنماطاً من البيوعات، لا عهد لسلف أمتنا بها في سابق الأزمان، ثمَّ هناك فقه الطب المعاصر ثمَّ علم السياسة الشرعية ثم علم القواعد الفقهية ثمَّ علم الأشباه والنظائر ثمَّ علم الاقتصاد الإسلامي الذي هو فرع من فروع الفقه، كل فقرة من هذه الفقرات تحتاج إلى عمر إنسان مضروباً (كذا مرة) في متوسط عمر الإنسان ليحيط بها كلها، فكيف والعمر لا يتسع والشواغل وهموم العيش لا تسمح.

إنّ مثل هذا التصور (الساذج) أو (الادعاء القاصر) في الحقيقة جريمة ترتكب بحق (العلوم الشرعية) و(تفريغ لها من محتواها) ولا يمكن لأحد أن يتصور أنه يمكن أن يكون (عالماً بكل هذه العلوم) إلا من (يجهل كل هذه العلوم) بآمادها الواسعة، ولا أعني بذلك مجرد استظهار (المتون) أو قراءة بعض الشروح فيها.

نعم يمكن أن يكون مطلعاً أو مثقفاً فيها، لكن لا يمكن أن يقال عنه مثلاً: (نحو يمشي على الأرض) أو (أصول فقه يجلس بين الناس) أو (بخاري القرن الحادي والعشرين) إلا إذا تفرغ كاملاً لواحد منها.

إنّ مما هو معروف ومسلَّم به أنَّ الدراسات الأولية والبدايات تعلم طالب العلم (شيئاً عن كل شيء) له تعلق بتكوينه العلمي، ثمَّ تأتي بعدها الدراسات التخصصية لتعلم (كل شيء عن شيء).

فالدراسات الأولية تمنح طالب العلم قدراً مقبولا من الأساسيات في علوم شتى بحيث لا ينبغي أن يظل جاهلاً فيها ويعاب على المتخصص عدم الاطلاع عليها، ويعجبني صنيع من أعرف من الأطباء حين يكون اختصاصه (العيون) مثلاً، حين يسأل عن حالة مرضية في (الباطنية) أو (الجلدية) فيشير عليك بإشارة مقتضبة ثمَّ يقول: سلْ الطبيب فلاناً، فإنه صاحب اختصاص وهو أدقُّ مني، يا ليت كثيراً منا يتواضعون للعلم تواضع هؤلاء فيحيل بعضهم إلى بعض بكل ودٍّ واحترام متبادل.

لقد توارى في العالم اليوم كثير مما كان شائعاً إلى حد قريب، وغابت كثير من المصطلحات السالفة التي لم يعد لها وجود إلا في الدول النامية، فقد تشظى العلم الواحد إلى علوم.

وخذ على ذلك (علم الهندسة) مثلاً تجد فيها: المعماري، المدني، التقني، الطبي، الوراثي، الزراعي، الري، الكهرباء... وتخصصات هندسية أخرى.

وخذ مثلاً (علم الطب) أقسام وتخصصات، بل تخصصات دقيقة فلم يعد مقبولا ذلك التخصص بالعنوان العريض: (الأنف والأذن والحنجرة) أو (الباطنية والأطفال) أو (الجراحة العامة) طفقوا يقصرون محتواها على بعض ما تدل عليه، ومما لاشك فيه أن هذا دليل الواقعية والعلمية لاتساع العلوم وعدم القدرة على الإحاطة بها، وهكذا، لقد أصبح لكل مفردة من المفردات المذكورة آنفاً تخصصات وليس تخصصاً واحداً.

وليس هذا غريباً عن تاريخنا في عصر ازدهاره العلمي، فالشافعي إمام الفقه، والباقلاني من أئمة العقيدة، وابن مجاهد من قرَّاء الأمة، والكيلاني عالم في السلوك، وابن الهائم فرضيُّ عصرِه، وابن معين ناقد في الجرح والتعديل، وابن منظور مَرْجِع في اللغة وهكذا تتعدد الاختصاصات، بل (تدق) أكثر لو تتبعنا أكثر، بل حتى في عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كان فيهم (الفرضي) زيد بن ثابت ﷺ و(المقرئ) أبي بن كعب ﷺ و(الفقيه) عمر بن الخطاب ﷺ و(القاضي) علي بن أبي طالب ﷺ و(الأمين) أبو عبيدة ﷺ، و (الشاعر) حسان بن ثابت ﷺ و(المفسِّر) ابن عباس (رضي الله عنهما)، و(النَّسَّابة) أبو بكر الصديق ﷺ . . و . . على قدر ما يتسع له ذلك العصر من اختصاصات.

وأمامي جملة من النصوص عن كبار أئمتنا تؤيد ما نقول من ذلك:

قول الإمام مالك بن أنس: كل علمٍ يُسأل عنه أهله[1].

---

(1) لطائف الإشارات لفنون القراءات: 1/ 80.

وقول الإمام الشافعي: وقد تكلم في العلم مَن لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له إنْ شاء الله[1].

وقول الحافظ الذهبي: وما زال في كل وقت يكون العالِم إماماً في فنٍّ مقصراً في فنون[2].

وقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: وإذا تكلم المرءُ في غير فنِّه أتى بهذه العجائب[3].

وقد عقَّب العلامة الأنور الكشميري فقال ـ ونعم ما قيل ـ: المرء إذا أتى في غير فنِّهِ أتى بالعجائب[4].

وقول الإمام الغزالي: كل فريق كالعامي بالإضافة إلى ما لم يحصل علمه، وإن حصَّل علماً آخر[5].

وقول الإمام ابن قدامة: فإنَّ كلَّ أحد عامي بالنسبة إلى ما لم يحصل علمه وإن حصل علماً سواه[6].

وقول شيخنا العلامة عبد الكريم المدرس في (صفوة اللآلي) في مبحث الإجماع: أما النحوي والمتكلم فلا يعتدّ بهما، لأنهما من العوام في حق هذا العلم، إلا أن يقع البحث في مسألة تنبني على النحو أو الكلام[7].

وإن كنتُ أعجب من بعض الطلبة ممن يحمل هذا التصور المخطوء من قدرتهم على الإحاطة بكل العلوم الشرعية فإنَّ عجبي أشد ممن يتصور أنه يمكن

---

(1) الرسالة: ص26.
(2) سير أعلام النبلاء: 5/ 260.
(3) فتح الباري: 3/ 584.
(4) فيض الباري: 4/ 370.
(5) المستصفى: 1/ 183.
(6) روضة الناظر: ص136.
(7) صفوة اللآلي: مبحث الإجماع.

أن يكون له اختصاصان في علمين واسعين (كعلم الشرع وعلم الطب) مثلاً، وقد قدمنا أن كل علم منهما إنما هو علوم متعددة، (ويقيناً) فالرجل إمّا أن يكون من علماء الشرع أو من علماء الطب ولا يمكن أنْ يصل حدَّ الإتقان لواحد إلا على حساب آخر، فانْ تميّز في واحد ذهب تميّزه في الآخر.

ذات يوم التقيتُ أحد طلبة العلم فذكر لي اسم عالمٍ من أعلام العالم الإسلامي وكان معجباً به ثم قال:

(تستطيع أن تقول عنه أنه عالم بكل شيء).

قلت:

على رسلك يا أخي، هل تعرف معنى (عالم بكل شيء).

فلم يحر جواباً.

ثمَّ شرحتُ للأخ معنى التخصص وبينت له تخصص ذلك الرجل الفاضل، وما مثل من يتصور أن (س) من العلماء متخصص بكل شيء، إلا كمثل التلميذ في مرحلة الدراسة الابتدائية حين يرى معلِّمَه يُعلِّمُه دروسَه كلَّها فيتصور أنَّ هذا المعلم أعلم من في الأرض جميعاً، وعذره أنه في أول الخطى لم يبصر الدراسة الثانوية ولا الجامعية، فإذا تقدمت به السن وامتلأ علماً عرف خطأ حكمِهِ السالف.

هذه كلمات أسوقها لأحث الطلبة على التخصص بل التخصص المبكر والدقيق، وأنْ لا يظلوا بلا تخصص، فتضيع أعمارهم في حلِّ (عبارات) دون منهج مدروس واضح المعالم، ولا أعني أبداً أنْ تهمل الأساسيات بل يؤخذ منها القدر الذي لا يستهلك الطالب ولا يطيل عليه المرحلة ثمَّ يسلم إلى تخصص يفيده ويفيد الأمة.

أقول هذا لنفيدَ من (الوقت) وقد وَلَجْنَا القرنَ الحادي والعشرين، ولنجتاز عقدةَ:

الأنف والأذن والحنجرة!!.

نحو
كتاب فقهي معاصر

كتابنا الفقهي المعاصر لا بدّ من أن يتضمن (فقه الأحكام) و(فقه القلوب) و(فقه المقاصد) و(فقه الدعوة) و(فقه العصر).

نَحْوَ
كِتَابٍ فِقْهِيٍّ مُعَاصِرٍ

الفقه في اللغة: الفهم مطلقاً سواء ما ظهر أو ما خفي.

وعلى هذا فقد عُرِّف بأنه معرفة الأحكام الشرعية نصاً واستنباطاً.

وخصه آخرون بالفهم الدقيق، وعلى هذا نزل تعريف الفقه بأنه:

العلم بالأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد.

وقد عني المسلمون بالفقه عناية فائقة تعليماً وتأليفاً، وكثرت المصنفات الفقهية، حتى أنه لا يعرف بين الأمم أمة تمتلك مكتبة في هذا الجانب العلمي ما تمتلكه أمتنا، وحين نقف على هذه المصنفات نجد أنها كتبت على حقب زمنية، وظروف مكانية متباينة، وأنها تحكي خصوصية (الزمكان) الذي تمَّ تأليف الكتاب فيه، وكان كل كتاب يوثّق مرحلة من مراحل أثر الفقه في الأمة، أو مراحل تعامل الأمة مع الفقه، ولم تتوقف عملية تدوين مصنفات فقهية، حتى بعد نضوج المدارس الفقهية الكبرى، بل على العكس نمت وازدادت، وما شاع في وقت ما من القرن المنصرم، في أصقاع معينة من إنكار «تأليف كتاب في الفقه بدعوى أن لا حاجة إلى ذلك» وحجر «قراءة الفقه على كتب معينة» لم يكن مسدداً ولا سنة متبعة لدى الأسلاف من علمائنا السابقين.

فقد تعددت الكتب وتعددت المناهج وكان الجميع ينظر إلى هذا على أنه (وسيلة) وليست (غاية) باعتبار أن الحاجة قائمة إلى الإفادة من (روح المناهج) وليس التشبث بمفردات من الكتب شاعت زماناً ومكاناً إلى درجة التعصب لتلك المفردة، وبناء على ذلك فإننا اليوم بحاجة إلى كتب تبحث في الفقه الإسلامي

يفيد منها طلبة العلم، والمثقفون من الأمة لتكون منهاجاً للمسلم المعاصر، يستعين بها في أداء عبادته وحل معضلاته تتم فيها مراعاة عدد من الأمور:

أولا: فقه الأحكام.

من المعلوم أن من المسائل الفقهية ما يكتفى فيها بالنص الشرعي إذْ لا اجتهاد في مورد النص، ومن المسائل الفقهية ما يحتاج المسلم فيها إلى استنباط الأئمة واجتهاد الفقهاء، فوجوب الصلاة أو حرمة الخمر ونحوها من الأمور القطعية النصية، لا نحتاج فيها إلى قول فقيه، أو اجتهاد إمام، على الرغم من أن الأئمة لو قالوا فلا يخرج قولهم عما ذكره الله تبارك وتعالى، ونبيه ﷺ، ويفهمه كل مسلم، ولكن من المسائل ما يحتاج إلى استنباط الفقيه، واجتهاد الإمام، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1] فالقرء هناك مشترك لغوي فهو بمعنى (الحيض) و(الطهر) فإما أن تكون العدة ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار.

هذا وأمثاله لا يمكن لنا أن نأخذه من تلقاء أنفسنا دونما الاعتماد على ما ذكره الأئمة واستنبطه المختصون.

فحيث يرد النص الصحيح الصريح غير المؤول ولا المنسوخ يكون الاستدلال به لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2] وقوله ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»[3].

وحين يرد النص صحيحاً غير صريح أو لا يرد نص في المسألة يكون الاستدلال بالاستنباط كما في مصطلح القرآن الكريم، أو بالاجتهاد كما هو في مصطلح السنة النبوية المطهرة، لقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[4]

(1) سورة البقرة: الآية (228).

(2) سورة الأنعام: الآية (57).

(3) رواه الحاكم في المستدرك: 1/ 171 بالرقم (318).

(4) سورة النساء: الآية (83).

وقوله: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[1].

ويوضح هذا المنهج قول الإمام أحمد:

إذا سئلتُ عن مسألة لا أعرف فيها خبراً قلتُ فيها بقول الشافعي لأنه إمام عالم من قريش[2].

وإذا حدث بعد هذا ضمن هذا المنهج وضمن الإطار العام لما ذكرناه (إجماع فقهي) فسيكون (حجة قاطعة) ملزمة للمسلمين، وإذا لم يحدث الإجماع بل تعددت الاجتهادات وتنوعت المدارك الفقهية فإنه سيكون (رحمة واسعة) كما ذكر الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في معرض أمور تنوعت فيها اجتهادات فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقال: «فإجماعهم حجة قاطعة وتنازعهم رحمة واسعة»[3].

وكما ذكر الإمام ابن قدامة ـ رحمه الله ـ حول الاختلافات الفقهية للمذاهب الأربعة فيقول: «اختلافهم رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة»[4].

ثانياً: فقه القلوب.

يحتاج المسلم اليوم أكثر من أي زمان مضى إلى العناية بالجانب الروحي، وتأكيد ما ينمي الخشوع في القلوب، نتيجة ضغط الحياة المادية التي غدت تلقي بظلها على حياة المسلم، حتى طالت العبادات التي يقوم بها.

فغدت (الصلاة) مثلاً . . . مجرد طقوس شكلية وحركات هندسية ذات زوايا قائمة وحادة.

---

(1) رواه البخاري: 6/ 2676 بالرقم (6919).

(2) المبدع: 10/ 38.

(3) مجموعة الرسائل الكبرى: 2/ 369.

(4) لمعة الاعتقاد: ص35.

والصوم مجرد امتناع عن المفطرات . . . وهكذا دواليك في سائر الشعائر؛ لذا فإنَّ الكتاب الفقهي الذي تمس الحاجة إليه اليوم هو ذلك الكتاب الذي يعنى بالجانب الروحي مع الحكم الفقهي، وقد نبَّه الإمام أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ في زمن مبكر على أهمية ما نقول في كتابه (إحياء علوم الدين) الذي مزج فيه بين فقه الأحكام وفقه القلوب، حيث نراه يُعَنْوِنُ: كتاب أسرار الصلاة ومهماتها، ثمّ شَرَعَ يوضّح أنه قد ذكر في كتب الفقه التي ألفها أصول الصلاة وفروعها . . وتعاريفها النادرة . . ووقائعها الشاذة . . .

ثم يقول: ونحن الآن في هذا الكتاب نقتصر على ما لا بد للمريد منه من أعماله الظاهرة وأسراره الباطنة، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية، وما لم تجر العادة بذكره في فنّ الفقه[1].

ويتابع رحمه الله : أسرار الزكاة . . أسرار الصيام . . أسرار الحج. وقبل ذلك: أسرار الطهارة.

بل إن هذا يمكن أن يمتد إلى الأبواب الفقهية الأخرى من معاملات وغيرها كما فعل ذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري في كتابه (محاسن الإسلام وشرائع الإسلام) حيث ذكر قريباً من ذلك من المرققات المذكرات في أبواب الفقه كافة، وهذا الذي نذكره من مزج فقه الأحكام مع فقه القلوب هو الأقرب فيما نفهم إلى حال المسلمين وهم يتلقون عن النبي ﷺ الشرع الحنيف.

ثالثا : فقه المقاصد.

[يُعدّ عصر التشريع الأول أقرب العصور إلى روح الشريعة وأسرارها وحِكَمِها، فالصحابة الكرام رضي الله عنهم ومَنْ بَعْدَهُم من فقهاء التابعين توفر لديهم من فضل الصحبة للرسول ﷺ ومن دقيق الفهم للغة القرآن الكريم وظروف التنزيل ما جعلهم أقدر على فهم مقاصد التشريع والاجتهاد وفق ما تقتضيه هذه المقاصد.

(1) إحياء علوم الدين: 1/ 146.

لكن هذا التوجه بعد عصر الصحابة والتابعين ظهر عليه بوادر التصدع والانفصام بين التعاليم الصحيحة للإسلام وواقع المسلمين المؤسف إذ قد حدث ـ خاصة في العصور المتأخرة ـ انقلاب كبير في القيم، وانقلاب مدوٍ في ميزان الأولويات، فَضُيِّعَتْ المعاني والأحكام وروعيت المظاهر والأشكال، والنتيجة أن المسلم المعاصر وقع في إشكاليات عديدة، فنتج عن هذا اتجاهان متباينان أحدهما: اتجاهٌ توسَّعَ بالرأي إلى حدٍّ أخل بمقاصد الشريعة، واتجاه ثانٍ مغاير للأول تمثل بالإحجام عن الرأي والنظر، والتزم بمراعاة مظاهر النصوص وأشكالها ونأى بعيداً عن روح نصوص التشريع ومقاصدها.

فلا مناص من العودة إلى مقاصد الفقه لرأب ذلك الصدع، وهذا العود لا يتحقق إلا من خلال النظر الدقيق في فقه المقاصد][1].

رابعا: فقه الدعوة.

ونعني به أن يتضمن كتاب الفقه تأكيد مراعاة حكمة الداعية، ومراعاة المصلحة العامة للأمة، وأن لا تكون المسائل الفقهية سبباً للخلاف بين الأمة والتنافر بين قلوبها، مثل هذا لا بد من الانتباه إليه حين يعرض الفقيه المسائل التي تنوعت فيها الاجتهادات ويلتزم واحداً منها، إذ إنّ القارئ غير الفقيه لا يعرف التعامل الصائب مع من ترجح عنده عكس ما رجحه مؤلف الكتاب الذي اقتناه.

فمن ذلك مثلاً مسائل الجهر بالبسملة أو الإسرار فيها في الصلاة، والقنوت في صلاة الفجر، وسنة الجمعة القبلية . . ونحو ذلك، ومن أروع من عالج مثل هذه القضايا الإمام ابن تيمية رحمه الله إذ قال في مسائل الجهر بالبسملة:

«ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف للمأمومين».

---

(1) يبدو أنها سقطت من الأصل فأكملها بعض طلابه.

ثم يقول: «وكذلك لو كان ممن يرى المخافتة بالبسملة أفضل أو الجهر بـ، وكان المأموم خلاف رأيه، ففعل المفضول عنده لمصلحة الموافقة والتأليف ـ والتي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة ـ كان هذا جائزاً».

ويقول: «مع أن أحمد يستعمل ما روي عن الصحابة في هذا الباب فيستحب الجهر بها لمصلحة راجحة، حتى أنه نصّ أن من صلى بالمدينة جهر بها، قال بعض الأصحاب: لأنهم كانوا ينكرون على من لا يجهر بها، ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا . .».

ويقول: «فأما صفة الصلاة فمن شرائعها مسألة البسملة فإن الناس اضطربوا فيها نفياً وإثباتاً في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنفت إلى طرفين مصنفات يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم مع أن الخطب فيها يسير، وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شرائع الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنه، إذ الداعية لذلك هو تراجيح الشعائر المفرقة بين الأمة وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جداً لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار الشعائر المفرقة»[1].

ويقول الحافظ ابن كثير: «فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة، وهي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، ولله الحمد والمنة»[2].

ويقول الإمام ابن تيمية في موضوع القنوت : «وإذا فعل الإمام ما يسوغ فيه الاجتهاد يتبعه المأموم فيه وإن كان هو لا يراه، مثل: القنوت في الفجر ووصل الوتر، وإذا ائتم من يرى القنوت بمن لا يراه تبعه في تركه».

---

(1) القواعد النورانية الفقهية: ص20 وما بعدها، الرسائل المنيرية 3/ 123، مجموعة الرسائل الكبرى: 2/ 188.

(2) تفسير القرآن العظيم: 1/ 18.

ويبين في موضع آخر صحة صلاة من قنت ومن لم يقنت فيقول: «فعامتهم متفقون على صحة صلاة من ترك القنوت، وأنه ليس بواجب، وكذلك من فعله إذ هو تطويل يسير للاعتدال والدعاء لله تعالى في هذا الموضع، ولو فعل ذلك في غير الفجر لم تبطل صلاته باتفاق العلماء فيما أعلم»[1].

ويقول في سنة الجمعة القبلية: «هذا الأذان الثالث لما سنه عثمان، واتفق عليه المسلمون، صار أذاناً شرعياً، فحينئذ تكون الصلاة بينه وبين الأذان الثاني جائزة حسنة، وليست سنة راتبة كالصلاة قبل المغرب، وحينئذ من فعل ذلك لم ينكر عليه ومن ترك ذلك لم ينكر عليه»[2].

وذكر مثل هذه المعالجات في مثل هذه المسائل ضرورة ملحة حتى تبقى الجوامع جوامع للقلوب، والمساجد موئلا للسكينة والطمأنينة، ويجتنب الإخوة الجدل والمراء الذي يوغر الصدور ويُذهِب بهاء الإيمان.

خامساً: فقه العصر.

الكتاب الفقهي الذي يحتاجه المسلم في القرن الحادي والعشرين لا بد من أن يتضمن (المستجدات) من الوقائع و (الغريب) من النوازل التي لم تكن موجودة في الزمن السالف، فثمّة أنواع من المعاملات: ضروب من الشركات والمزارعات، تحتاج إلى أحكام مدللة ومقنعة.

ومن ناحية أخرى بنى الفقهاء جملة من الأحكام الاجتهادية على معطيات عصورهم العلمية سواء في جانب الطب أو الفلك أو غيرهما من العلوم، أو في أبواب الفقه: الطهارة . . الصلاة . . الصيام . . الخ، اتضح لنا في عصرنا بما لا يدع مجالا للريب خطأها.

لا بد لكتابنا الفقهي في هذا العصر من أن يقوم على أساس ما قام به أئمتنا

(1) المصادر السابقة، الاختيارات الفقهية: لابن تيمية ص70.

(2) المصادر السابقة.

في عصرهم فنعتمد على معطيات عصرنا ملاحظين ضرورة الأخذ بالحقيقة العلمية والتأني بالنسبة للنظرية، مع ملاحظة مهمة هي أنه لا يقاس بدقة معلومة اليوم أية معلومة في أي زمن مضى.

كتابنا الفقهي المعاصر لا بد من أن يتضمن (فقه الأحكام) و(فقه القلوب) و(فقه المقاصد) و(فقه الدعوة) و(فقه العصر) ولا بد من أن ينهل طلبتنا الفقه في ضوء ما تقدم ليستطيعوا أن يعيشوا عصرهم الذي هم فيه وفي حالة اعتماد (كتاب فقه قديم) فلا بد لمدرس هذه المادة من أن يراعي ذلك على شكل تقريرات وحواش.

لكن لتكن (حواشي معاصرة).

أمة
واحدة لا أمتان

إنّ مفهوم الأمّة مفهوم عقائدي، فهنالك أمّة مسلمة وأمم كافرة، أمّة مسلمة بمختلف أعراقها، وقومياتها، وشعوبها، وقبائلها، ولغاتها، ولكنها واحدة لكونها تعبد الله الواحد بمنهجه الوحيد.

أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لاَ أُمَّتَانِ

كثيرا ما يسترعي انتباهي كلام بعض الأخوة من الفضلاء ـ وبعضهم من أهل العلم ـ وهم بصدد الحديث عن القضايا المصيرية للأمة في خطاباتهم المقروءة والمسموعة، فألحظ في كلامهم عبارات مثل: (إن الأمة العربية والإسلامية)، ومثل: (الأمتان العربية والإسلامية)، وبعضهم يقول مفاخراً: (نحن أمة العرب) وأسمع رابعاً يقول: (نهنئ الأمتين العربية والإسلامية).

وبالنظر لما أفهمه من معنى الأمة في المصطلح الإسلامي من خلال آيات في كتاب الله تعالى، وأحاديث في سنة رسول الله ﷺ، ومسيرة عمرها أكثر من ألف وأربعمائة عام في تاريخ الأمة، أحببتُ أنْ أسطِّر هذا الفهم من خلال هذه الكلمات فأذَكِّر أبناءَ الأمة بمعنى الأمة في المصطلح الإسلامي.

أقول: إنَّ الأمة هي أمة واحدة لا تعدد فيها، وهي الأمة الإسلامية، وأن التعدد في الشعوب والقبائل، فالأمة الإسلامية واحدة، وهي تضم شعوباً عربية وغير عربية. ولإيضاح ذلك أقول:

الأمة في اللغة: هي أمر جامع ذو بال من دين أو لغة أو بلد. ولكن حين نتأمل نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة نجد أنَّ المعنى الديني قوي ظاهر في هذه الكلمة أعني كلمة (الأمة)، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[2].

فهكذا ذكر الله الأمة واحدة فأفردها، ولكنه تبارك وتعالى جمع كلمتي

(1) سورة الأنبياء: الآية (92).

(2) سورة المؤمنون: الآية (52).

الشعب والقبيلة حين قال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[1]، فأفرَدَ الأمة في الآيتين السابقتين وجمع الشعوب والقبائل، لأنَّ الانتساب إلى الشعوب والقبائل أمر خَلْقي لا ينبني عليه ثواب أو عقاب ما دام «**النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ**»[2]، لكن تعدد الأمم يعني تعدد المناهج، إنه باختصار اختيار أحد الطريقين طريق الأمة المسلمة أو طريق الأمة غير المسلمة.

وحين نصغي إلى النبي الكريم ﷺ نجده في ميثاقه الذي كتبه حين وصل المدينة يقول فيه عن «**الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ النَّاسِ**»[3]، في إشارة منه إلى أن الجامع الجديد إنما هو العقيدة.

وأحاديث النبي ﷺ الكثيرة ـ ومنها: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[4]. ومنها التي يقول فيها ﷺ: (أمتي) في مناسبات متعددة ـ كلها تدل على أن الأمة مصطلح يشمل المسلمين من كل الأعراق وعلى اختلاف اللغات وتعدد البلدان، ولا يشمل غير المسلمين حتى لو اتحدت الأعراق واللغات والبلدان.

فالأمة الإسلامية أمة واحدة، وفيها شعوب متعددة، وفي الشعب الواحد قبائل متعددة، وكل ذلك انتسابات محترمة لكن الانتماء يكون للأمة التي هي: (جامع عقائدي).

على أنَّ الانتماء إلى الأمة لا يلغي الانتساب إلى ما تقدم، فالإمام الشافعي منسوب إلى جده شافع، والإمام أحمد بن حنبل منسوب إلى بني شيبان، والحافظ العراقي منسوب إلى العراق، والمفسر القرطبي منسوب إلى قرطبة في بلاد الأندلس، وهكذا بل إنَّ بعض العلماء نسب إلى حرفة كالقفال والنحاس،

---

(1) سورة الحجرات: الآية (13).

(2) حديث شريف رواه الترمذي: 5/ 734 بالرقم (3955).

(3) رواه البيهقي في سننه الكبرى: 8/ 106.

(4) رواه أبو داود: 4/ 109 بالرقم (4291)، والحاكم في المستدرك: 4/ 567 بالرقم (8592).

ومنهم إلى وصف خَلقي كالزنجي شيخ الشافعي، والأعمش من علماء الحديث وهكذا . .

يقول ابن تيمية (رحمه الله): (بل الأسماء التي قد يَسُوْغُ التَّسَمِّي بها مثل: انتساب الناس إلى إمامٍ كالحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، أو إلى شيخ كالقادري، والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي واليماني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء، ولا يعادى عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان)[1].

فتعدد النسبة لا يعني إذاً تعدد الانتماء لأن الانتماء يقتضي الولاء، والولاء لا يكون إلا لله، ثم هو للأمة من بعدُ، فالانتماء شيء، والانتساب أو التسمي شيء آخر.

ومما يوضح هذا نجد أن فقهاءنا يؤكدون أن العالَم بأسره أمتان:

أمة الإجابة: وهم كل من استجاب لدعوة النبي ﷺ فأسلم وشهد شهادة الحق.

وأمة الدعوة: وهم كل من لم يسلم فهي تشمل الناس كلَّهم من غير المسلمين.

وعلى هذا المفهوم نفهم قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2] فالمقصود به أمة الإسلام، وليس من الصحيح حصر المراد بهذه الآية بالعرب، لأن في العرب من لا يعبد الله ومن هو غير مسلم.

وهذا ما نتعلمه من دعاء إبراهيم (عليه السلام) بعد أن أعلمه الله أن ذريته لن يكونوا جميعا أئمة، طلب من الله أن يكون من ذريته (أمة مسلمة) قال

---

(1) مجموع الفتاوى: 3/ 416.

(2) سورة آل عمران: الآية (110)

تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، وهذا يعني أن ذريته على الرغم من أنهم من أب واحد وهو إبراهيم (عليه السلام) أصبحوا فريقين: أمة مسلمة وأمم غير مسلمة.

بعد كل هذا نقول: إنّ مفهوم الأمّة مفهوم عقائدي، فهنالك أمّة مسلمة وأمم كافرة، أمّة مسلمة بمختلف أعراقها، وقومياتها، وشعوبها، وقبائلها، ولغاتها، ولكنها واحدة لكونها تعبد الله الواحد بمنهجه الوحيد: (أمتكم أمّة واحدة)، (وأنا ربكم فاعبدون)، (وأنا ربكم فاتقون)، (المسلمون أمّة من دون الناس).

وأمة غير مسلمة بمختلف أعراقها وقومياتها وشعوبها وقبائلها ولغاتها لكونها لا تعبد الله الواحد بمنهجه الوحيد ومن هنا (فَالْكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ)[2].

أدرك المسلمون ذلك فلم يكن على ـ سبيل المثال ـ أي رابط بين أبي بكر الصديق وأبي جهل لكون كل واحد منهما من أمة، على الرغم من أنهما جميعاً من قبيلة واحدة هي قريش، وشعب واحد وهو شعب العرب، ولم يكن أي رابط بين سلمان الفارسي وقومه في بلاد الفرس لكون كل واحد منهما من أمة، على الرغم من أنهما من شعب واحد وهو شعب الفرس، وبلاد واحدة وهي بلاد فارس.

لقد كانت أقوى الروابط بين أبي بكر الصديق وبلال الحبشي لكونهما من أمة واحدة على الرغم من أنَّ كلَّ واحد منهما من شعب، فأبو بكر من شعب العرب وبلال من شعب الحبش، ويتجلى هذا المعنى في قول عمر بن الخطاب ﷺ: (أَبُوْ بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا)[3]، وقول المصطفى ﷺ: «**سَلْمَانُ**

---

(1) سورة البقرة: الآية (128).

(2) أثر مروي عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، رواه أبو يوسف في كتابه الآثار: 1/ 171 بالرقم (781).

(3) رواه البخاري: 3/ 1371 بالرقم (3544).

مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[1].

ولم يقل: آل هاشم لأن مصطلح أهل البيت مصطلح إيماني قرآني عقائدي، بينما مصطلح آل هاشم مصطلح قومي شعبي، فلم يكن آل هاشم جميعاً من المؤمنين، في حين كان أهل البيت جميعاً من الأطهار المباركين.

وعلى هذا أقول:

لم يكن أي رابط بين سيدنا محمَّد ﷺ وعمِّه أبي لهب على الرغم من أنهما من بني هاشم، بل لقد جاء الكتاب العزيز بذم أبي لهب، فهما من أمتين مختلفتين، وكانت أقوى الروابط وأزكاها بين سيدنا محمَّد ﷺ وسلمان الفارسي ﷺ لأنهما من أمة واحدة.

بل أَلَمْ يُقتل أبو جهل العربي بيد العربي المسلم، أَلَمْ يتوجَّه سلمان الفارسي المسلم لفتح بلاد الفرس!.

لقد حارب غير المسلمين هذا المفهوم للأمة، وعملوا بكل ما يستطيعون من الداخل والخارج على زعزعة مفهوم الأمة الواحدة من أجل تقطيع أوصال المسلمين ووأد الروابط التي تجمع بينهم جميعاً، وأبرزها رابط الأمة الواحدة، فطرحوا مفاهيم للأمة على أساس العرق أو اللون أو البلد أو اللسان لتكون بديلاً عن مفهوم القرآن والسنة للأمة.

ومن هنا ندرك سر قيام أعداء الدين بإجهاض مشروع السلطان عبد الحميد الثاني في إقامة الجامعة الإسلامية التي هي خطوة في الطريق الصحيح لتأصيل مفهوم الأمة الواحدة، كما ندرك سرَّ إصرار الاستعمار البريطاني يومها على إقامة الجامعة العربية لتكون بديلاً ـ بل ومانعاً ـ من إقامة جامعة الدول الإسلامية، ولا ندري لعلنا نشهد إتمام المشروع الاستعماري (القديم ـ الحديث) من خلال الإجهاز على ما تبقى من أشلاء جامعة الدول العربية الذي بدت معالمه تظهر في الأفق لتقوم مقامها جامعة الدول الشرق أوسطية لتضم دولة الكيان الصهيوني.

فالليلة حبلى وتلِدُ كلَّ عجيب.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 3/ 691 بالرقم (6539).

الأمّة العراقية

هل هو مشروع جديد يتحول الوطن العربي فيه إلى أمم متعددة، فأمة عراقية، وأمة سورية، وأمة مصرية، وأمة أردنية، وأمة قطرية، وأمة بحرينية ... وهلمّ جرّا، بعد أن كان أصحابه ينادون بالأمة العربية ؟!!

الْأُمَّةُ الْعِرَاقِيَّةُ

شدني هذا العنوان الذي قرأته في إحدى المجلات في مقال يتحدث فيه كاتبه عن بعض شؤون العراق وأهله، وعلى الرغم من أننا اليوم نسعى جادين لكل ما من شأنه أنْ يرأب صدْعَاً ويرصَّ صفاً إلا أنَّ بعض ما قد يطرح اليوم ربما يحمل في ثناياه معاني قد لا يكون طارحها قاصداً لها بل قد تحمل من جهات أخرى.

ولعلَّ ما نفهم من الدعوة إلى الأمة العراقية هذا المصطلح الجديد أنه يحمل دعوة أخرى إلى فصل العراقيين عن إخوانهم في العالمين العربي والإسلامي، وأنه لا ينبغي لهم أن يفكروا بإخوانهم في العالم الإسلامي والوطن العربي، أو أن يمدوا يد العون لإخوانهم في فلسطين مثلاً، ومن ثمَّ لا يحق لغيرهم كذلك من أبناء العالم الإسلامي والوطن العربي بالتدخل في شؤونهم والسعي لحل معضلتهم.

وذكَّرَني هذا العنوان بقضية فلسطين التي تحولت من قضية أمة إلى قضية فرد من خلال تخطيط ـ بدا لنا فيما بعد ـ محكم وانتقال تدريجي.

فيوم وقع الاحتلال الإسرائيلي على فلسطين الحبيبة ثار المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وانتفضوا وتنادوا للعمل من أجل تحرير البلاد وطرد الاحتلال.

وانطلق يومها عدد من دعاة الأمة ورجالاتها المعروفين ـ وكان من أبرزهم سماحة العلامة الشيخ أمجد الزهاوي، والقاضي الأديب الأريب علي الطنطاوي، والداعية الكبير الشيخ محمَّد محمود الصواف ـ يجوبون بلاد آسيا وأفريقيا، وينطلقون هنا وهناك يستنهضون الهمم ويشدون العزائم للعمل جميعاً من أجل تحرير فلسطين.

وفي الوقت الذي كان العالم الإسلامي يعبَّأ ويستعد لذلك . . تشكلَّتْ جامعة الدول العربية بتشجيع ودعم من (بريطانيا) وكان من أبرز إنجازات تلك الجامعة؟! ـ يا للأسف ـ أنْ جعل أعضاؤها قضية فلسطين قضية عربية في محاولة لسلخها عن شعارها الإسلامي ودثارها الإيماني، وبالتالي لم تعد القضية قضية إسلامية بل قضية عربية فخسرت بذلك أكثر من (90%) من المسلمين، لأنَّ العرب لا يشكلون سوى أقل من (10%) من المسلمين وفي هذا إضرار وإجحاف كبيران بها.

ومضت أيام إثر أيام وإذا بنا نسمع نغمة أخرى، وهي أن القضية هي قضية فلسطينية ليس إلا، وأن الشعب الفلسطيني هو وحده من يملك القرار في موضوع فلسطين وأن الجامعة العربية سترضى بما يختاره الشعب الفلسطيني.

وهكذا لم تعد حتى قضية عربية، وبذلك خسرت قرابة مائتي مليون ليصبح رصيدها بضعة ملايين بعدد أصابع اليد الواحدة أو يزيدون قليلاً، هم الفلسطينيون الذين يعيشون في الداخل والخارج ما بين اضطهاد الاحتلال وآلام الشتات مما يشكل ضغطاً نفسياً لا يستطيع حامله أن يأخذ حقه كما ينبغي.

ولم يطل الوقت حتى بدأنا إعلاماً صاخباً وضجيجاً قوياً مفاده: أنَّ منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وهكذا غابت الملايين لتحل محلّها بضعة آلاف أكثرهم ما بين شريد وطريد.

وكان محصّلة ما جرى ومحصّلة الواقع الفلسطيني أنْ أوكلتْ الأمور إلى شخص واحد هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وهكذا ابتدأت القضية قضية إسلامية لتنتهي بقضية شخصية، وكم هو الفرق كبير ـ وكبير جداً ـ بين قضية لها عمق مليار ونصف مسلم وقضية عمقها قرار شخص واحد.

ولا شك في أن مثل هذا هو حلم الغرب وتخطيط قواه العاملة منذ زمن

بعيد، ومما يوضح بعض ذلك ما قاله (لورانس) في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة):

(وأخذت طوال الطريق أفكر في بلاد الشام وفي الحج، وأتساءل: هل تتغلب (القومية) على النزعة (الإسلامية)؟ وهل يغلب الاعتقاد (الوطني) الاعتقاد (الديني)؟.

وبمعنى أوضح: هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل بلاد الشام مثلها الأعلى (الديني) بمثلها الأعلى (الوطني)؟!.

هذا ما كان يجول بخاطري طوال الطريق). انتهى كلامه.

تذكرت كل هذا وأنا أقرأ عنوان هذا المقال (الأمة العراقية) وتسارعت إلي ذهني ذكريات الدعوات التي كانت تسعى - ولا تزال - إلى تفتيت الأمة الإسلامية، تارةً بالدعوات إلى القومية العربية المجردة عن العقيدة الإسلامية، وتارةً بالدعوات إلى الآشورية والسومرية والبابلية في العراق، والفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا، ليكون كل ذلك بديلاً عن الدعوة إلى الأمة الإسلامية، وبديلاً عن الدعوة إلى جامعة الدول الإسلامية، وبديلا عن الدعوة إلى كيان إسلامي واحد.

فهل يراد لنا اليوم أن نصغر في العراق وتصغّر قضيتنا معنا لتؤول في آخرها إلى قضية رجل واحد يأتي فيما بعد ويحكم بنا كما يشاء؟!.

وهل هو مشروع جديد تحوّل فيه الأمة الإسلامية الواحدة إلى أمم متعددة؟!.

وهل هو مشروع جديد يتحوّل الوطن العربي فيه إلى أمم متعددة، فأمّة عراقية، وأمّة سورية، وأمّة مصرية، وأمّة أردنية، وأمّة قطرية، وأمّة بحرينية . . . وهلمّ جرّا، بعد أن كان أصحابه ينادون بالأمة العربية؟!!.

وما ندري هل ثمّة مشروع جديد يطلع علينا في قابل الأيام في عراقنا الحبيب لنكون أمّة موصلية وأمّة بغدادية وأمّة بصرية، وأمّة، وأمّة، وهكذا.

هذا في الوقت الذي تتحد فيه دول أوربا الخمس والعشرون تحت مظلة اتحاد واحد، يرأسه رئيس جمهورية واحد، ولهم برلمان واحد، ووزير خارجية واحد، يصرّ أعداء الأمة على تجزئتنا محاولين إقناعنا بأنَّ الخير كلَّه في تلك التجزئة.

أقول هذا حتى لا نخطئ قراءة التاريخ.

تصوُّف السلف

إننا بحاجة إلى مشروع (تصوف السلف) بوصفه مشروعاً إصلاحياً تتجاوز به الأمّة ما خطط له الأعداء من خلال اصطناع الحواجز الوهمية بين أبناء الدين الواحد .

تَصَوُّفُ السَّلَفِ

ليس ثمَّة بديل ناجح في موضوع التصوف ـ الذي طال الكلام فيه ـ عما يمكن أن نطلق عليه بـ (التصوف السلفي) أو لنقل (تصوف السلف) هذا الذي يُجْمِعُ المسلمون على حقائقه ـ وإنْ بدا لبعضهم أنْ يتوقف على حذر بسبب المصطلح ـ.

وليس ثمَّة مسوّغ لهذا (الجدال) بل (الصراع) الذي احتدم كثيراً في القرن المنصرم، وخرج عن حدود المألوف في أدبياتنا الإسلامية إلى ما لا يقرّه الشرع ولا يرضى به الله سبحانه وتعالى، فما دام المقصود بالتصوف عند أئمته هو (الخُلُق فمن زادك في خُلُقه زادك في تصوفه)[1] هذا الخلق بجانبيه: التخلق مع الحق «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ** »[2]، والتخلق مع الخلق فـ«**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[3] ومادام المقصود بالسلف أهل القرون الخيرية الثلاثة، «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[4]، لا يبقى مسوّغ ـ بالنسبة للجميع ـ لعدم المصير إلى ما نسمّيه بـ (تصوّف السلف).

وهذا الذي نقوله نجد معالمه جليةً في سيرة الأئمة وكتاباتهم، فرواد الأمة من السلف هم أئمة التصوف الذين يهتدي أهل هذا العلم بهداهم، ويستشهدون في كتبهم بمأثور أقوالهم، وأئمة التصوف هم سلف الأمة المتقدم، فقد نشأ هذا العلم وترعرع في خير القرون، شأنه شأن سائر العلوم الشرعية الأخرى.

وهذا التداخل في التصور والسلوك هو سرّ التكامل الذي عاشه مَن سبقنا

---

(1) ينظر: حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ـ رحمه الله ـ ص9.

(2) حديث شريف رواه البخاري: 1/ 27 بالرقم (50)، ومسلم: 1/ 39 بالرقم (9).

(3) حديث شريف رواه الترمذي: 3/ 466 بالرقم (1162)، وأبو داود: 4/ 220 بالرقم (4682).

(4) حديث شريف رواه البخاري: 2/ 938 بالرقم (2509)، ومسلم 4/ 1963 بالرقم (2533).

مِن المسلمين، ونعموا ببركاته وشائج كريمة من العقيدة الصحيحة، والحب المستديم عبر كل القرون، وفي غياب هذا الفهم غابت معه معانٍ كثيرة من معاني التكامل التي جاء بها هذا الدين، وباختفائه اختفتْ أواصر المحبة وروابط الإخاء التي نجد الأمة اليوم بأمس الحاجة إليها.

وبفعل ما حدث انكفأت الأمة على نفسها منشغلة بها عن عدوّها وعمّا يكيده لها، وكان الأولى بشيبها وشبابها أنْ يترسموا خطى الأئمة في هذا المضمار ليجتازوا كل الموانع التي أقحمتْ في طريق الأمة ليصدوها عن أملها المنشود في الوحدة الكبرى.

ومن أجلى وأسرع ما يبرز المعنى الذي نريده ما تركه لنا الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من إرث علمي وأدبي، فهو على الرغم من كونه متأخراً ـ من علماء القرن الثامن الهجري ـ إلا أنه بما عرف به من تأكيد منهج السلف في فهم النصوص وتطبيقها، أشير إليه في هذا المنهج بالبنان حتى غدا من الأعلام فيه، وبثنائه على التصوف قرَّبَ لنا تلك الصورة، واجتمعت معاني تصوف السلف في كتاباته وسيرته.

وعلى خلاف الشائع عنه فإننا نجد له ثناءً عاطراً على التصوف وأئمته، والنصوص في هذا كثيرة منها، قوله: (وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء مثل الجنيد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي، وتوصية بإتباع ذلك، وتحذيراً من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك، وهذا هو الفرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه.

والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين، ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي)[1].

---

(1) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية: رسالة الاحتجاج بالقدر: 2/ 154.

ويقول الإمام ابن تيميه أيضا: (وأما الصوفية فهم يثبتون المحبة، بل هذا أظهر عندهم من جميع الأمور، وأصل طريقهم إنما هي الإرادة والمحبة، واثبات محبة الله مشهور في كلام أولاهم وأخراهم، كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف)[1].

ويتكلم على المحبة للأعمال الواجبة والمستحبة ثم يقول: (وهذه المحبة، كما نطق بها الكتاب والسنة، الذي عليه سلف الأمة، وأئمتها، وأهل السنة والحديث، وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف، أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة)[2].

ويقول أيضا: (ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيرا بمتابعة العلم ومتابعة الشرع)[3].

وعلى هذا المنهج سار كبار تلامذة الإمام ابن تيمية ـ رحمهم الله أجمعين ـ ولعلَّ أخصّهم به هو الإمام ابن القيم، إذ يركز في مدارجه على المعاني السامية: (العلم، الجود، الصبر) ثم يقول: (فهذه الثلاثة أشياء بها يدرك التصوف. والتصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي، وتزكية النفس وتهذيبها، لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى، ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب، كما قال سمنون: «ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة فإن المرء مع من أحب، والله أعلم»)[4].

ومنهم: الحافظ الذهبي إذ يقول: (فإنما التصوّف والتألّه والسلوك والسير والمحبة ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبر، والقيام بخشية وخشوع وصوم وقت، وإفطار وقت، وبذل المعروف، وكثرة الإيثار،

---

(1) المصدر السابق 2/ 144.

(2) التحفة العراقية: لابن تيمية ص71، الشركة الإسلامية.

(3) منهاج السنة النبوية لابن تيمية: 3/ 84.

(4) مدارج السالكين لابن القيم: 2/ 317.

وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزز على الكافرين، ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[1].

ويختم الذهبي كلامه هذا بجوهرة نفيسة فيقول: (والعالِم إذا عري من التصوف والتألّه فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زلّ عن سواء السبيل)[2].

وفي سنة (1986م) قدمت هذا المشروع ـ مشروع تصوف السلف ـ من خلال رسالة بعنوان: (كلمات في التصوف بقلم شيخ الإسلام ابن تيمية) ولقد كان لهذه الرسالة يومها أثر طيب في فهم براءة الإمام ابن تيمية مما نسب إليه من طعنه على التصوف وأئمة الصوفية، حتى قال بعض الدارسين: إنّ هذه الرسالة هي دفاع عن ابن تيمية، في حين قال الآخرون: إنها دفاع عن التصوف، وحقاً ما قالوه، فإنها دفاع عن ابن تيمية وما يمثله، وعن التصوف ومَن يمثله في آن واحد.

ولو رغب هؤلاء الإخوة إليّ في التعبير عن كنه تلك الرسالة لألفوني قائلاً: (إنها دفاع عن الإسلام) وبعبارة أخرى (دفاع عن الفهم السليم للإسلام، ودعوة للمحبة والتأليف بين المسلمين).

إنّ التصوف الذي هو منهج تربية مستقى من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، هو منهج الجنيد البغدادي ومَن سبقه وعاصره من أئمة التصوف، والذي تجلى بوضوح فيما بعد في أعظم مدرستين للتصوف: مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومدرسة الشيخ أحمد الرفاعي ـ عطر الله ثراهما بشآبيب رحمته ـ وهذا هو ما فهمه ابن تيمية وهو يتعامل مع التصوف، وهذا محط إجماع الأمة.

ومما دفعني وقتها للسير في هذا المشروع قدماً، رغبة كبار العلماء

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي: 15/ 410.

(2) المصدر السابق. وقد كتب الحافظ الذهبي في السير ما أوضح فيه الفرق بين الأئمة الأصلاء والمدعين الدخلاء، فأثنى على أئمة التصوف أيما ثناء، وشخّص المدّعين تشخيص العالم المنصف، فجزاه الله خيراً وعطّر ثراه.

والمفكرين والدعاة الشديدة في مواصلة الدرب لرأب الصدع الذي أصاب بنيان الأمة، فقد كتب إليّ شيخنا العلامة الدكتور عبد الملك السعدي في تقريظه قائلاً: (الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ـ رحمه الله ـ فقد ظلمه مادحوه وقادحوه على حد سواء، فالفريقان لم يقفوا على حقيقة هذه الشخصية الفذة ولم يعطوها حقها، ومن بين المظالم التي وجهت له اتهامه من قبل الفريقين بأنه رجل معاد للتصوف ورجاله، فالمادحون نظروا بنظرتهم القاصرة واتهموه بأنه معاد للتصوف ورجاله، وألبسوه رداءً وهو بريء منه، ولم يعلموا أنه إمام من أئمة التصوف وشيخ من مشايخهم، وذلك إلى جانب رفضه للمدعين له والمشوهين لحقيقته، وإنّ في ثنائه على قادة التصوف أكبر برهان يشهد له على ذلك، والقادحون له نالوا منه بأقلامهم وألسنتهم ظناً منهم أنه صاحب شذوذ وانحراف، ورجل بدعة وضلال وكلا الإتهامين مجانب لواقعه).

وكما كتب أيضاً، مقدماً الرسالة، المفكر الإسلامي المعروف الدكتور عماد الدين خليل قائلاً: (فما يسمى بالسلفي وما يدعى بالصوفي ـ وهي تسميات جاءت متأخرة بعض الشيء ـ إنما هما على ضوء هذه الحقيقة، أبناء هذا الدين وأصحابه، ولا يخرج منهم عن الجادة أو يحكم عليه بالخروج إلا من وسوس له الشيطان فارتضى أن يخالف عن أمر الله بالقول والفعل، وإنّ أبا يزيد البسطامي (الصوفي) والشافعي (الفقيه) ـ رحمهما الله ـ يحسمان الأمر بهذه الكلمات التي قالاها كما لو أنهما يلتقيان على ميعاد: (لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي).

كما أن صوفياً معروفاً كالشيخ عبد القادر الكيلاني يعلن بوضوح وحزم أن: (ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال).

هذا ما أراد أن يقوله المؤلف، وهو يتعامل مع موقف الشيخ ابن تيمية عن التصوف، أو بعبارة أدق: هذا ما أراد ابن تيمية نفسه أن يقوله).

ثم يتابع الدكتور عماد الدين خليل قائلاً: (والكتاب ـ بعد هذا وذاك ـ

محاولة جادة لإعادة الوفاق بين تيارين من تيارات هذا الدين، اصطرعا طويلاً للأسف، متشبثين برؤية أحادية الجانب تعمل بمبدأ: (إما هذا أو ذاك) ولم يقل أحد منهم: (هذا وذاك) الالتزام والتصوف، الأسلاف والتابعون لهم بإحسان، ما داموا أنهم جميعاً يمضون على الجادة ملبّين أمر الله وحده عاملين بتعاليم رسوله الكريم ﷺ).

ويقول في ختام تقريظه: (وإذا كان ابن تيمية نفسه هذا المعلم الكبير يقول عن الصوفية ما تجدونه أمامكم في هذا الكتاب، فهل يبقى ثمّة مبرر للخلاف الذي يتجاوز دائرته المباحة صوب الكراهية والخصام؟!!).

وكتب اللواء الركن المرحوم محمود شيت خطاب ـ رحمه الله ـ: (قرأت كتاب (كلمات في التصوف) نقلها المؤلف من كتاب الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يثني بها على التصوف والصوفية ثناءً عاطراً، ومن المعروف عن الإمام ابن تيمية أنه لا يجامل ويقول الحق ولو على نفسه، ولا يخشى في قول الحق لومة لائم، ومؤلفاته الصادحة بالحق القوية المؤمنة تشهد بذلك، فكان ابن تيمية بحق من أبرز علماء المسلمين بخاصة، وعلماء العالم بعامة في صراحته وصدقه والابتعاد عن المجاملة دون أن يكترث بأحد.

وثناء الإمام ابن تيمية على التصوف والصوفية في كتبه دليل على أنه معهم لا عليهم، ومعاداته لبعض الصوفية وانتقاداته لسلوكهم معروف لا يخفى على أحد، مدوّن في كتبه، معروف عنه في حياته العلمية، (وليس ذلك تناقضاً) بل هو يدل على أن الإمام ابن تيمية مع أئمة التصوف الذين هم مع الكتاب والسنة بدون انحراف ولا تحريف، ولكنه ـ رحمه الله ـ كان على المنحرفين الذين يدّعون الانتساب إلى التصوف وليسوا كذلك، فحارب ابن تيمية الانحراف الذي شوه التصوف وليس التصوف، وحارب المنحرفين من الصوفية وليس الصوفية جميعاً، ولهذا كثر في محاربته تعبيره (بعض الصوفية) ولم يقل (كل الصوفية) وفي ذلك معنى لا يخفى على أحد).

ثم يقول: (لقد فرحت بهذا الكتاب (كلمات في التصوف) لأنه محاولة

جادة في التقريب بين المتقاطعين... فكل سلفي صوفي، وكل صوفي سلفي مادام: (التصوف علم الأخلاق والزهد والتقوى بموجب ضوابط الكتاب والسنة) ويومئذ يعم التهاني ويرحل التجافي، ولا يسود المساجد إلا الأخوّة الإسلامية، فأعداء الإسلام يعتبرون رواد المساجد (هم المتطرفون) وإنّ ما يزعجهم هو ارتياد المساجد، ولن يرضيهم أقلّ من ترك الصلاة وهجر المساجد، وهم لا يفرقون بين هذا وذاك، كلهم بالنسبة لأعداء الإسلام متطرف، فافهموا الموقف بوضوح يا أيها المسلمون وإلا فأنتم على خطر عظيم).

هذه النصوص تؤكد ما ذكرناه في صدر المقال من (أننا بحاجة إلى مشروع (تصوُّف السَّلف) بوصفه مشروعاً إصلاحياً تتجاوز به الأمة ما خطط له الأعداء من خلال اصطناع الحواجز الوهمية بين أبناء الدين الواحد) .

ومن دون ذلك فإنّ هذا الصراع سينهك الجميع بعد أن يستهلك كل القوى، ويبعثر كل الجهود التي عمل السابقون من أجل أنْ تثمر على أيدي اللاحقين، وستُثمر إن شاء الله.

وبعد:

فإنه يراد لهذه الكلمات أن تسهم إسهاماً فعالاً في إغناء الحوار ضمن هذا المحور من محاور الوحدة الإسلامية، بعيداً عن مجرد الاقتصار على (الخطابيات) وذلك من خلال علاج ما يمكن أنْ يشكل عائقاً يحول دون الوصول إلى تحقيق الألفة والأخوّة بين الأمة، دون المساس بمشاعر أي من أفراده، ليتقبل الجميع هذا المشروع (الوحدوي الأخوي) بثقة وسرور.

كما أننا بحاجة ماسة إلى دراسات جادة لكل (العوائق) وإيجاد الحلول الناجعة عبر رؤية علمية مستنيرة ؛ كي لا تبقى الأفكار أو المبادئ حبيسة (حماسة ساعة) على منبر، أو خبيئة (عاطفة جياشة) سرعان ما تبرد بانفضاض الجمع وانتهاء اللقاء، لا بد لنا من أنْ نعمل لنحول الأفكار إلى خطط ملموسة، والمبادئ إلى برامج مدروسة، فليس هناك بقاء (للعفوية والعفويين) في عالم اليوم، عالم (البرمجيات).

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ والْمَذَاهِبُ وَالتَّصَوُّفُ

عقيدتي وديني الذي أدين الله به
مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه
أئمة المسلمين، مثل: الأئمة الأربعة
وأتباعهم إلى يوم القيامة.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ولا ننكر الطريقة الصوفية .

الشيخ عبد الله بن الشيخ
محمد بن عبد الوهاب

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ وَالْمَذَاهِبُ وَالتَّصَوُّفُ

منذ أمدٍ بعيد، وأنا أتطلع إلى كتابة (أصغر مقال) يُحلُّ به (أكبر إشكال) في تأريخ الأمة الحديث، منذ قرابة مائتي عام، وبالتحديد منذ ظهور دعوة الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب، والتي عرفت باسم (الدعوة الوهابية) حيث نشأ منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا صراع بين المنتسبين إلى تلك الدعوة وغيرهم من عموم المسلمين، ربما اشتدّ هذا الصراع وربما خفّ، إلا أنه قائم لم ينقطع منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا.

والذي أريد أنْ أقوله: إنّ النقطتين الجوهريتين التي وقع الخلاف فيها بين المنتسبين للدعوة الوهابية وعموم المسلمين ـ فيما أرى ـ هما نقطتان:

الأولى: الموقف من المذاهب الأربعة.

الثانية: الموقف من التصوف.

أما بقية المسائل فهي أقلّ حساسية من هاتين النقطتين، وأحياناً نجد أن

ما قاله هؤلاء الإخوة قد قال به أحد المذاهب المعتبرة لدى الأمّة، وينظر المسلمون عامة نظرة إجلال إلى كل المذاهب، ويحترمون اجتهادات أئمتها والمنتسبين إليها.

وبما أنني وعدت أن يكون مقالي هذا (أصغر مقال) فلن أفيض في الكلام بل سأكتفي بنقل ما وقفت عليه من نصوص في أمر المذاهب الأربعة والتصوف عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ونجله الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهما بصدد إيضاح دعوتهما والدفاع عنها مما نسب إليها وليس فيها، ويغلب على ظني أن نسبة ما لم يرضه الشيخان إلى دعوتهما كما تقع من

غير المحبين لعدم التثبت في النقل، تقع كذلك من المحبين أنفسهم بسبب اطلاعهم المحدود على دعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

أولاً: المذاهب الأربعة.

يظن الأكثر، الأغلب، من محبي الشيخ محمّد بن عبد الوهاب ومن غيرهم أنه لا يجيز تقليد أحد الأئمة الأربعة، ويرفض الانتساب إلى واحد من تلك المذاهب، وأنه استقل بالاجتهاد، ويدعو كل مسلم مهما كانت بضاعته مزجاة من العلم عامة، والفقه خاصة في أن يغدو مجتهداً.

لكنه على العكس من ذلك.

فقد كتب الشيخ محمّد بن عبد الوهاب رسالة إلى عبد الله بن سحيم، ذكر فيها أموراً شنعتْ عليه في حياته وأنه بريء منها، بل إنه يقول فيها: (سبحانك هذا بهتان عظيم).

ومما جاء في تلك الرسالة قول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب:

إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها، منها ما هو البهتان الظاهر:

وهي قوله: (إني مبطل كتب المذاهب).

وقوله: (إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء).

وقوله: (إني ادعي الاجتهاد).

وقوله: (إني خارج عن التقليد).

وقوله: (إني أقول اختلاف العلماء نقمة).

ثم ذكر عدداً من المسائل نُسبتْ إليه، بلغت اثنتي عشرة مسألة، وقد تبرأ منها جميعها، إلى أن قال: فهذه اثنتا عشرة مسألة جوابي فيها أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم[1].

---

(1) صيانة الإنسان: ص184.

ويقول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب أيضا:

(عقيدتي وديني الذي أدين الله به: مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين، مثل: الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة)[1].

ويقول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب:

(فنحن ولله الحمد متبعون غير مبتدعين، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وحتى من البهتان الذي أشاع الأعداء أني أدعي الاجتهاد ولا اتبع الأئمة)[2].

ويقول أيضاً:

(فتأمل ـ رحمك الله ـ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه بعده والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وما عليه الأئمة المقتدى بهم من أهل الحديث والفقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ـ رضي لله عنهم أجمعين ـ لكي تتبع آثارها. وأما مذهبنا فمذهب الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة. ولا ننكر على أهل المذاهب الأربعة إذا لم يخالف نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة وقول جمهورها)[3].

ويقول ولده الشيخ عبد الله بن الشيخ محمّد بن عبد الوهاب:

(إن مذهبنا في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقنا طريقة السلف، ونحن أيضاً في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ولا ننكر على من قلد أحد الأربعة).

ثم يقول: (ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد لدينا يدعيه، إلا أننا في بعض المسائل إذا صحّ لنا نص جلي من كتاب أو سنة، غير منسوخ ولا

---

(1) المصدر السابق: 474.
(2) أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب: القسم الخامس، الرسائل الشخصية ص40.
(3) المصدر السابق: ص107.

مخصص، ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب)[1].

وقال الشيخ عبد الله نجل الشيخ محمّد بن عبد الوهاب في مختصر رسالة والده:

(ونودي بالمواظبة على الصلوات في الجماعات، وعدم التفرق في ذلك بأن يجتمعوا في كل صلاة مع إمام واحد، يكون ذلك الإمام من أحد المقلدين للأربعة

ـ رضوان الله عليهم ـ)[2].

ثانياً : التصوف.

يظن الكثير من محبي الشيخ محمّد بن عبد الوهاب ومن غيرهم أنه كان مجافياً للتصوف وأهله، ولكن النصوص الثابتة عنه وعن نجله تخالف ذلك.

فقد قال الشيخ محمّد بن عبد الوهاب:

(اعْلَمْ ـ أرشدك الله ـ أنّ الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذي هو العلم النافع، ودين الحق الذي هو العمل الصالح، إذا كان من ينتسب إلى الدين، منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين)[3].

ويقول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب أيضاً:

(ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون يوصون كثيراً بمتابعة العلم، قال

---

(1) صيانة الإنسان: 474.

(2) المصدر السابق: 476. ما نقلته عن الشيخ في (صيانة الإنسان) موجود في (أسبوع الشيخ) لكني اطلعت أولاً على كتاب (الصيانة) قبل كتاب (الأسبوع) ثم وجدت ما نقل في الصيانة موجوداً في (الأسبوع).

(3) مؤلفات الشيخ محمّد بن عبد الوهاب: القسم الثالث ص31 (فتاوى ورسائل) المسألة الخامسة، ومطلعها: وسئل رحمه الله عن مسائل مفيدة فأجاب.

بعضهم: ما ترك أحدٌ شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه)[1].

ويقول نجله وولده الشيخ عبد الله بن الشيخ محمّد بن عبد الوهاب ما نصه: (ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح ما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي)[2].

أقول:

هذه النصوص التي وقفت عليها في هاتين النقطتين، وهي كما يرى الأخ القارئ لا تخالف ما عليه المسلمون عامة من إجلال المذاهب الأربعة، وإقرار تقليد أئمتها والانتساب إليها، واحترام التصوف بمعناه المذكور والمعروف من كونه (علم تزكية النفوس) وتنزيه الباطن من الرذائل.

لكن يبقى السؤال الذي بحاجة إلى إجابة ملحة:

كيف غاب عن محبي الشيخ محمّد بن عبد الوهاب هذا الكم من النصوص؟.

وكيف غاب عن غيرهم أيضاً؟.

هذا الغياب الذي أدى إلى خصومات بل مهاترات، وصراعات.

ويبقى السؤال قائماً: من المستفيد الأول من اختلاف الأمة في أمر هي متفقة عليه؟.

لكن مشكلتها أنها لا تدري.

لا تدري، ولا تدري أنها لا تدري ....

---

(1) ملحق المصنفات: ص124. وهذه الكلمة قريبة من كلمة الشيخ ابن تيمية حيث قال: ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيراً ما يوصون المريدين باتباع العلم والشرع. مجموعة الرسائل الكبرى: 2/ 151.

(2) الهدية السنية: خمس رسائل كتبها علماء نجد جمعها ورتبها الشيخ سلمان بن سحمان النجدي، وعلق عليها السيد محمّد رشيد رضا، رسالة الشيخ عبد الله بن الشيخ محمّد ابن عبد الوهاب.

مَا قال لا مَنْ قال

ليس من اختصاص علم العقيدة البحث عن (مَنْ قال) إنما الاختصاص هـو (مـا قـال)، ومـا دام الـجـمـيـع يعتقدون بتكفير القول يصبح الخلاف في القائل من اختصاص المؤرخين.

مَا قَالَ لاَ مَنْ قَالَ

بثت إحدى القنوات الفضائية على مدى أيام، (حوارات) لم تكن (موفقة) أثارت (لغطاً) حول بعض أعلام الأمة إلى درجة أن نِيْلَ فيها من شخص الشيخين ابن عربي وابن تيمية إلى درجة التكفير.

وتأتي هذه الكلمات لتوضح الحد الأدنى مما ينبغي أن يكون عليه الحوار المعقول حول أمثال أولئكم الأعلام، لا يتجرأ مَنْ خَلَف على سبقه مِنَ السَّلف، في محاولة للفرز بين ما هو من قبيل روايات التاريخ وما هو من ثوابت العقيدة.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً، طرقت عليه الباب من دون موعد سابق، وكانت نيتي أن أدعوه إلى حضور حفل مسابقة حفاظ القرآن الكريم السنوية التي اعتدنا القيام بها، ولم تكن نيتي الدخول إلى داره، فالوقت متأخر وليس بيني وبينه موعد سابق.

خرج الأخ ورحب بنا وألح علي بالدخول، اعتذرت وتعللتُ بتأخر الوقت وكثرة الأعمال، لكنه أسرع قائلاً : (الله جابك).

قلت: خير.

قال: عندي ضيوف وقد ابتدؤوا نقاشاً حول الشيخين ابن عربي وابن تيمية من ثلاث ساعات وإلى الآن بسبب ما بثته تلك (القناة) فعسى أنْ تشاركنا فيه.

قلت: اعذرني يا أخي فلا أحب الحديث في أمثال هذه المناقشات.

ألح علي كثيراً، لم أجد بداً من الدخول. دخلنا الدار، وسلمنا على الحاضرين، بادر صاحب الدار بإعادة ما ذكره لي عند الباب أمام الضيوف مع بعض الإيضاحات، وختم كلامه قائلاً : لقد سمعنا ما قلتم والآن ننتظر من ضيفنا أنْ يحدثنا في هذا الموضوع.

أردتُ أن أختصر قدر الإمكان فقلت: إن الجدل الذي يدور بينكم، ليس جديداً، والاتهامات التي تقال ـ وسمعت بعضها ـ والدفاع كذلك ليس جديداً، أنتم جميعاً مسلمون، ومن أهل السنة والجماعة، فلا أرى مسوغاً لمثل هذا الجدل الذي استمر ـ كما أُخْبِرْتُ ـ من بعد صلاة العشاء إلى الآن، ثلاث ساعات متواصلة، ولن ينتهي ما دامت طريقتكم في نقاشكم ما أخبرت.

اسمحوا لي أن أقول: إن النقاش في قضية تاريخية، عمرها قرابة الألف عام، لا فائدة فيها، ولن تصلوا إلى نتيجة.

اعترضني أحد الحاضرين قائلاً: أنا أخالفك، القضية عقائدية وليست تأريخية، وأضاف الآخر: نعم، إنها من صميم عقيدة المسلم.

وجدْتُني مضطراً للدخول في التفاصيل فقلت لهم:

إن من الأمة من يجل الشيخ محيي الدين بن عربي إجلالاً كبيراً بحيث إنه يصفه بأنه (الشيخ الأكبر)، ومن الأمة من يجل الشيخ ابن تيمية إجلالاً كبيراً بحيث إنه يصفه (بشيخ الإسلام).

وربما وجدنا في الفريق الأول من يذم الشيخ ابن تيمية، وربما وجدنا كذلك في الفريق الثاني من يذم الشيخ ابن عربي، وكأنه قد استقرّ في عقول هؤلاء أن إجلال أحد الرجلين قائم أو لازم لذم الآخر.

والذي أود أن أقوله: إنه على الرغم مما هو موجود من تناقض في الظاهر بين هؤلاء وهؤلاء، ففي قناعتي أن الحوار الهادئ يصل بالطرفين إلى نقطة التقاء، هذه النقطة يبدأ منها الحوار الناجح.

والسؤال الذي أريد أنْ أقدمه سلفاً هو لماذا يُذم الرجلان؟.

والجواب فيما أرى أن الذين يذمون الشيخ ابن عربي إلى درجة التكفير، إنما بسبب أنهم يقولون: إن ابن عربي يعتقد بوحدة الوجود أو الحلول والاتحاد، وهي عقائد فاسدة، بل ضلال وكفر.

وحين نسأل من يحب الشيخ ابن عربي عن ذلك نجدهم يقولون: هذا

كذب على الشيخ، وافتراء، إنه بريء من ذلك، لقد دُسَّ عليه، وزِيْدَ، وعندنا أدلة كثيرة تثبت براءته من هذه العقائد الفاسدة.

ويبدأ الدفاع...

وأدع هؤلاء لأسألَ الذين يذمون الشيخ ابن تيمية إلى درجة التكفير، عن السبب، فأجدهم يقولون: إن ابن تيمية يعتقد بالتجسيم، والتشبيه، واثبات قديم مع الله، وهي عقائد فاسدة، بل ضلال وكفر.

وحين نسأل من يحب الشيخ ابن تيمية عن ذلك نجدهم يقولون: هذا كذب على الشيخ، وافتراء، إنه بريء من ذلك، لقد نُسبت إليه تلك الحادثة كذباً، وزوراً، وعندنا أدلة كثيرة تثبت براءته من هذه العقائد الفاسدة.

ويبدأ الدفاع...

وهنا أحبّ أن ألفت الأنظار إلى أن خلاصة دفاع الفريقين عن الرجلين في نقطتين:

الأولى: نفي ما نسب إليهما مما يوحي بالكفر، وإعلان أنه قد دُسَّ عليهما.

الثاني: تأويل ما يقبل التأويل من كلامهما على وجه شرعي، وإعلان أن ظاهر الكلام غير مقصود.

وأحبّ أن ألفت الأنظار بناءً على هذا إلى أن ابن عربي الذي يحبه هؤلاء، هو غير ابن عربي الذي يذمّه هؤلاء، وأن ابن تيمية الذي يحبه هؤلاء، هو غير ابن تيمية الذي يذمّه هؤلاء.

بمعنى أن الصورة عن الرجلين في ذهن كل فريق مختلفة تماماً عن الصورة في ذهن الفريق الآخر. فالشيخ ابن عربي عند محبيه مسلم موحد، وهو عند ذامّيه اتحادي ملحد، والشيخ ابن تيمية عند محبيه مسلم موحد، وهو عند ذامّيه، مجسِّم ملحد، إذاً فكل واحد يتكلم عن رجل غير الرجل الذي يتكلم عنه الآخر.

ورحم الله أحد العلماء، وكان اسمه (الشيخ محمّد) وكان قد بلغه أن رجلاً قد تكلم عليه كلاماً قاسياً، وذمّه بأشياء سمعها عنه غير موجودة فيه، فلما بلغه ما قاله ذلك الرجل فيه، قال الشيخ محمّد: سلموا لي عليه، وقولوا له: (أنا وهو ضد الشيخ محمّد الذي في رأسه) بمعنى أنا أيضاً أذمُّ الشيخ محمّد الذي في ذهنه!.

لذلك لا نستغرب من فعل (الشيخ علاء الدين البخاري) حين كفر ابن عربي وابن تيمية كليهما، لأنه تصور صحة ما نسب إليهما، فكفرهما معاً[1].

بينما نجد (الشيخ الآلوسي) يصف الشيخ محيي الدين بالشيخ الأكبر، والشيخ ابن تيمية بشيخ الإسلام، ويثني على الرجلين كليهما ثناءً عطراً لعدم قناعته بثبوت ما نسب إليهما[2].

وأعود فأقول: إن ابن عربي وابن تيمية في ذهن (علاء الدين البخاري) هما غيرهما في ذهن (الآلوسي) لا أعني غيرهما من حيث (الذات) وإنما غيرهما من حيث (التصورات) فمَنْ كَفَّرَ، كَفَّرَ الصورةَ التي في ذهنه. ومَنْ أثنى، أثنى على الصورة التي في ذهنه.

فالمسلمون جميعاً يعتقدون بتكفير القائل بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، وبتكفير المجسِّمة والمشبِّهة واثبات القدم لغير الله سبحانه. إنَّ الإخوة المتناقشين ليس فيهم ـ بحمد الله ـ مجسم أو اتحادي أو . . أو . . .

حقيقة النقاش إذاً هل قال الشيخان ابن عربي أو ابن تيمية ما نسب إليهما

---

(1) الرد الوافر، لابن ناصر الدمشقي، تحقيق زهير الشاويش، ص: ق، طبعة المكتب الإسلامي.

(2) ينظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، تأليف نعمان خير الدين الآلوسي، الصفحات: 41، 49، 106، ومواضع كثيرة أخرى طبعة بولاق 1298هـ. ومن هؤلاء: سبط الشرنْبُلالي محمّد بن بدر الدين الشافعي(ت1182هـ) فقد ألف كتابين، عنوان الأول: رسالة في الذبّ عن ابن عربي، والآخر بعنوان: رسالة في الذبّ عن ابن تيمية. وهو كما يبدو من عنوان الرسالتين من المدافعين عن الرجلين في وقت واحد، والرسالتان مخطوطتان. ينظر: مطبوعات مركز جمعة الماجد/ دبي1416هـ، المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبرغ/ كلية الدراسات الشرقية، إشراف/ عبد الرحمن فرفور.

أم لا؟، وهذا لن ينتهي فللتاريخ أذان لكن ليست له عيون.

لقد اتفقتم على ضلال القول، واختلفتم هل أنّ الشيخ ابن عربي قد قال ما نسب إليه أم لا؟ واختلفتم هل أن الشيخ ابن تيمية قد قال ما نسب إليه أم لا؟.

دعوا (مَنْ قال) بعد اتفاقكم على ضلال (مَا قَال)، دعوا (القائل) بعد اتفاقكم على ضلال (القول)، ما دمتم لا تملكون من الأدلة القطعية ما تدينون بها هذا أو ذاك، ولو امتلكتم دليلاً قطعياً واحداً لما استغرق النقاش أكثر من دقيقة.

فهل القضية الآن قضية عقيدة أم قضية تأريخ؟.

لقد تحولت القضية من قضية اعتقاديه إلى قضية تأريخية، بمعنى أن ملف القضية ينبغي أن يُسحب من كلية العقيدة وأصول الدين إلى كلية الآداب/ قسم التأريخ.

ليس من اختصاص علم العقيدة البحث عن (من قال) إنما الاختصاص هو (ما قال) وما دام الجميع يعتقدون بتكفير القول يصبح الخلاف في القائل من اختصاص المؤرخين.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

نظرتُ إلى صاحب الدار فوجدتُ علامات الرضا قد بدت على وجهه، وقد جمع كفيه على هيئة الدعاء مشيراً إلي أن أختم المجلس بالدعاء، فرفعتُ يدي داعياً ويؤمن الحاضرون: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

---

(1) سورة البقرة: الآية (134).

(2) سورة الحشر: الآية (10).

التوسل
قراءة جديدة

فهذه مسألة من مسائل الفقه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة.

الشيخ حسن البنا

التَّوَسُّلُ قِرَاءَةٌ جَدِيْدَةٌ

موضوع (التوسل) من الموضوعات التي كثرت فيها الكتابة كثرة فائقة، ولاسيما في الأعصر المتأخرة بحيث لا أكون مبالغاً إذا قلت: إننا لو أردنا أن نحصي(عناوين) المؤلفات التي خصصت للحديث عن (التوسل) أو المباحث أو المقالات التي وردت ضمن مؤلفات أو مجلات لاحتجنا إلى عدة مجلدات، تنوف صفحات كل مجلد على ألف صفحة.

هذا كلُّه بشأن (العناوين) فما بالنا بشأن (المضامين)، وأعني في ذلك ما كان منها على أساس المشروعية والإقرار أو على أساس المنع والإنكار، لا ريب أننا أمام (كم) هائل من الكتابات في هذا الموضوع لا مسوّغ له البتة.

وإذا أردنا أن نحسب (كم) من الأوقات قضاها المسلمون .. علماءً .. مقلدين .. صغاراً .. كباراً .. شباباً .. شيباً .. رجالاً ... وأحياناً ربما (نساءً)! يتناقشون .. يتجادلون .. يتناحرون .. وأحياناً (يمارسون) عمليات التكفير، والتبديع، والتفسيق، وهم بصدد بحث هذه المسألة.

لقد ولّدَ الجدلُ في هذا الموضوع: ضروباً من التناقضات: ذماً .. ثناءً .. قدحاً .. مدحاً .. جمعاً للأدلة .. رداً على الأدلة .. تعقيباً على الرد .. طعناً في التعقيب .. تعميما .. تخصيصاً .. تأويلاً .. استدراكاً.

وكلما تذكرت ملايين المطبوعات من الكتب والكراريس والمطويات التي ترجمت إلى لغات الأقليات المسلمة وهي تبحث في هذا الموضوع بهذا الأسلوب وما ينجم عن قراءتها من خلاف وصراع وأزمة الثقة بين الأمة ودعاتها مما يجعل الطريق معبدة أمام (المنصِّريْن) - وهذا ما حدث فعلاً - ازداد ألمي واسترجعتُ ربي.

كم وكم (وآه) ماذا سيكون جواب هذه (الكم) ونتيجتها، فأنا ومنذ نعومة أظفاري، منذ طفولتي أسمع هذه النقاشات فيها، ثم شَبَبْتُ وأنا أسمعها، وكبرت سني وأنا أسمعها، وربما سأنزل إلى قبري فيأتي بعض المتطوعين (حسبةً) يسمعني جدالهم فيها، تناحرهم، واصطراعهم جراءها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومما يؤسَف له ويبعث على الأسى والحزن أن السِّمة الغالبة على تلك الكتابات والمناقشات هي سمة الاتهام للمخالف، والمهاترات بين المجيزين والمانعين، بحيث إنك تبحث عن لغة (الحوار العلمي) فلا تكاد تسمع إليها، جراء ضجيج الجدل وارتفاع الأصوات.

وإنني - والله يعلم - لولا ولولا لأقسمتُ أنّ الفئام الأعظم من هؤلاء المتناقشين لا يعرفون لماذا يتناقشون وعلى أي شيء يتجادلون، وما هو كنه المسألة وحقيقتها، ولماذا كل هذا؟ وهل أن الإسلام من الضيق بحيث لم تبق فيه إلا هذه المسألة وأضرابها؟.

لا أدري ماذا سيكون موقفهم لو قال لهم الباحث الموضوعي المتجرد: (إنكم غير مختلفين) في مسألة التوسل وإنكم على حد سواء تقولون (قولاً واحداً) في كثير مما تتصورون أنكم مختلفون فيه - ومن ذلك موضوعنا هذا - لا شك في أنهم آنذاك سيتعجبون، سيقولون: مستحيل! كيف؟ لا. أبداً، غير ممكن!! وربما سيضحكون من هذا الكلام العجيب لديهم، ولكنهم عما قليل سيقرؤون، فإذا قرؤوا فهموا ما قاله لهم أخوهم الباحث، وأكبر مصيبة هي أن يردوا قبل أن يقرؤوا، وأن يتصارعوا قبل أن يتعانقوا، فإذا قرؤوا وتعانقوا فلا رد ولا صراع.

قاتل الله أحد وزراء الكيان الصهيوني حينما سُئل عن سرِّ جرأته في نشره لأحد كتبه التي تحوي مخططات كيانهم القادمة ضد العرب المسلمين، أجاب قائلاً: (إنهم لا يقرؤون) فهل صدق في هذه وهو الكذوب؟! هل المسلمون لا يقرؤون؟ وهل أنهم لا يتفاهمون فيما بينهم؟ هل يحبون التفاهم أم لا؟ حُسْنُ

ظني بإخواني أنهم يحبون التفاهم، وحسن ظني بالله تعالى أنهم إن أحبوا التفاهم وفق الله بينهم ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾[1].

التوسل عرض وتحليل:

اتفق المسلمون على التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبالعمل الصالح وبدعاء المسلم لأخيه.

واختلفوا في التوسل بالصيغة الآتية: اللهم نتوسل إليك بنبيك ﷺ أو بغيره من الأنبياء والمرسلين، والصديقين والصالحين، أو أن يقول: أسألك بجاه النبي ﷺ أو بجاه غيره من الأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين.

لا حاجة - قارئي الكريم - إلى التسرع في إعطاء الحكم فهذا النوع من التوسل يسمى (التوسل بالذات) ولابد من أن نعلم أن لفظ التوسل بالذات له اعتباران متباينان، ولكل اعتبار حكم خاص، وهذا ما أغفله الباحثون والكاتبون فيما سطروه من بحوث ودبّجوه من مقالات، فتراهم ـ في أحايين كثيرة ـ يطلقون (حكماً واحداً) سواء أكان الحكم (جوازاً) أم (منعاً) لكلا الاعتبارين المختلفين من دون تفصيل.

ومما لا شك فيه أن هذا خطأ فادح، ومكمن الخطأ فيه أن تختلف الاعتبارات ويتحد الحكم، ومن ثمّ كثرت الردود بين الجانبين (المجيزين والمانعين) وتأزمت المناقشات بينهما. بيد أنهم لو قسموا المسألة كما هي بحد ذاتها وكما تقتضيه طبيعتها العلمية إلى اعتبارين، ثم أعطوا لكل اعتبار حكمه الخاص به لما وقع بينهم أي إشكال، ولما بقي بينهم أي خلاف، لأن النتيجة ستكون مرضية للجميع ومسرّة لهم، ومن دون خروج عن نهج الأئمة وسلف الأمة ـ عليهم من الله الرحمة ـ.

---

(1) سورة النساء: الآية (35).

الاعتبار الأول: الاعتبار المتفق عليه.

أن يقول المتوسل اللهم إني أسألك بالنبي ﷺ أو بالأنبياء والصالحين. وينوي بذلك: التوسل إلى الله بالإيمان أو الحب أو الموالاة أو النصرة للحبيب عليه الصلاة والسلام، ونحو ذلك من النيات الحسنة والأعمال الصالحة، فإنه يكون عند ذلك جائزاً مجمعاً عليه وقربة إلى الله من أجَلِّ القرب، إذ أنّ الإيمان به ﷺ والحب له ولسائر الأنبياء والصالحين عمل صالح، بل هو من أجَلِّ الأعمال الصالحة، وقد تقدم أن التوسل بالأعمال الصالحة مجمع عليه. فبعد أن ذكر الإمام ابن تيمية أثراً فيه توسل أحد السلف بلفظ: (الله، الله، الله ربي لا أشرك به

شيئا، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمّد نبي الرحمة ﷺ يا محمّد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي) قال الإمام ابن تيمية: فهذا ونحوه قد روي أنه دعا به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء، ونهى عنه آخرون، فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين[1].

ويذكر في موطن آخر فيقول: «نعم لو سأل الله سبحانه وتعالى بمحمّد ﷺ ومحبته له وطاعته له، لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل»[2].

ويعرض سؤالاً عمّن قصد من قوله (أسألك بنبيك محمد) التوسل بالإيمان به وبمحبته فقال: من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع . . ثم يقول: وإذا حمل على هذا المعنى كلام مَن توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف، كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين، وعن الإمام أحمد وغيره، كان هذا حسناً وحينئذ لا يكون في المسألة نزاع[3].

---

(1) التوسل والوسيلة: ص97.

(2) المصدر السابق: ص57.

(3) المصدر السابق: ص64.

ويقول في موطن آخر: فإذا قال القائل: أسألك بحق فلان أو بجاهه أي أسألك بحق إيماني به ومحبتي له. وهذا من أعظم الوسائل، قيل: من قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح[1].

الاعتبار الثاني: الاعتبار المختلف فيه.

وهو أن يقول المتوسِّل اللهم إني أتوسل إليك بالنبي ﷺ، أو بالأنبياء والصالحين، وينوي التوسل إلى الله بذات النبي ﷺ الشريفة أو بذوات الأنبياء والصالحين، ساهياً عن قصد معاني الحبّ والنصرة والإيمان والطاعة والولاء واستحضار ذلك في توسله.

يقول الإمام ابن تيمية: (فإن كان مقصود السائلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محلّ النزاع)[2].

هنا محل الخلاف .. ليس الخلاف إذاً فيمَنْ تلفَّظ بصيغة التوسل بالنبي ﷺ أو بالأنبياء والصالحين، فلهذه الصيغة اعتبار مجمع عليه وهو الأول، واعتبار مختلف فيه وهو الثاني، أي عند التوسل بالذات من غير توسل بتلك المعاني الشريفة واستحضارها عند الدعاء، ولو توسل المسلم بالاعتبار الثاني فمن العلماء من رأى أن لا غضاضة في ذلك، إذ لولا إيمانه بالنبي ﷺ وحبه له لما توسل به، ولولا حبه للأنبياء والصالحين لما توسل بهم، كالمتوسل بكلام الله فلولا إيمانه به لما توسل به.

ومن العلماء من لم ير ذلك، لكن ليس هناك في الدنيا عالم من سلف هذه الأمة يحكم على هذا الفاعل بأنه خارج عن الشرع ومارق عن أحكامه، ورحم الله الشيخ حسن بن عبد الرحمن البنا حين قال عن التوسل: (خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة).

---

(1) المصدر السابق: ص98، 158.

(2) التوسل والوسيلة ص98، 64.

وغاية ما يقوله - من يقول - إن هذا العمل مرجوح أو مفضول، وأكثر ما رأيت ما قاله الشيخ محمّد بن عبد الوهاب إذ أنه (أجازه) لكنه قال عنه: إنه (مكروه).

حتى أنه يعد غير ما ذكره بنفسه في هذا الموضوع ـ وتقدم آنفاً ـ بهتانا وافتراءً، فقد كتب متألماً ممن نسب إليه القول بتكفير المتوسل بالصالحين فقال: جوابي فيها أن أقول: (سبحانك هذا بهتان عظيم)[1].

وبين يدي رسالة له يسأل فيها عن هذا الموضوع عمَّنْ قال (اللهم إني أتوسل بنبيك أو بالأنبياء أو الصالحين) فيقول: (فهذا ليس شركا ولا نهينا عنه).

ويقول في مكان آخر: (فهذه مسألة من مسائل الفقه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد). ويقول: (ليس مما نختلف نحن وغيرنا فيه).

ومن لطيف ما يذكر أنني وفي غضون كتابة هذه الأسطر التقيت بإخوة أعزاء من مجيزي التوسل ومن مانعيه، فقرأت لهم ما قال الشيخ محمّد بن عبد الوهاب، فاستغربوا جميعاً لفرط الدهشة لما سمعوا، حتى أن بعضهم أمسك المصدر بكلتا يديه وقرأ بأم عينيه . . آنذاك سكت الجميع ولم ينبسوا ببنت شفه.

لقد هالهم ما قرؤوا، وهالهم أنهم مخطئون، ولا يعرفون أنهم مخطئون، كيف لا وإن الفريقين على حد سواء ينسبان إلى هذا الشيخ ما لم يقله، بل ينسبان إليه عكس ما قال.

ولعلك تسأل أي مصدر يمكنني أن أقرأ فيه ما ذكرتَه لي من أقوال الشيخ؟.

أقول لك: اقرأ كتاب (مجموعة الفتاوى والرسائل والأجوبة، خمسون رسالة في التوحيد) للشيخ محمّد بن عبد الوهاب، إعداد وتقديم عبد الله حجاج، الرسالة العشرون ص95 ط2 مكتبة التراث الإسلامي سنة 1408هـ.

(1) ينظر: أسبوع الشيخ محمّد بن عبد الوهاب، القسم الثالث.

واقرأ كتاب (فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص68 نشر جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ).

كم كنتُ أودّ أنْ لا تعطى هذه المسألة أكثر من حجمها (العلمي).

وكم كنت أودّ أن أذكر هذه المصادر في الهامش، لكن المؤلم أننا حولنا هذه المسألة من مقرها في الهامش إلى مسألة غير هامشية، فاضطررت إلى ذكر مصادرها فوق الهامش.

تعالوا يا إخوة.

لنتعاهد على طمر المِرَاء، ووَأْدُ الجدل.

على نقاء القلوب، وإحسان الظن.

على طلاقة الوجه، وعفة اللسان.

فهل تقدر الأيادي المتوضئة على التصافح؟.

وهل تقدر قلوب أصحابها على التسامح؟.

هيا جميعاً لنكُنْ. . . . شجعان.

التوسل والاستغاثة

استغاثة المخلوق بالمخلوق
كاستغاثة الغريق بالغريق.
أبو يزيد البسطامي

بَيْنَ التَّوَسُّلِ وَالاسْتِغَاثَةِ

بعد أن تقدم حكم التوسل والكلام عليه، وأصبحت المسألة لا لبس ولا غموض فيها، وأن المسألة في أشد صورها لم تخرج عن تعبيرات ثلاثة: أنها مرجوحة، أو مكروهة، أو خلاف فرعي، وأنّ غاية ما فيها عند أصحاب القول الآخر أنها صيغة من بين الصيغ الموضوعة للدعاء لا تقل عن الإباحة، ولا ترقى إلى الوجوب، وهذا كله إن قصدنا من التوسل، التوسل بالذات مجرداً عن المعاني الأُخرى، التي إذا حفته أو قصدت ابتداء أو استقلالاً كالتوسل بالحب للنبي ﷺ أو بالحب للصالحين ونحو ذلك فإنه سيكون آنذاك محط إجماع على استحبابه، فضلاً عن جوازه.

بعد هذا كله أودّ أن أعرج إلى مسألة أخرى هي ذكر الفرق بين التوسل والاستغاثة:

(فالتوسل) كما تبين لنا إنما هو سؤال الله وحده ابتداءً وانتهاءً.

(والاستغاثة) هي سؤال غير الله ما لا يقدر عليه، ولذا فإن سؤال الله (بوسيلة) سواءً كان الحكم إجازةً أم منعاً، استحبابا أم كراهةً، يختلف كل الاختلاف ويتباين كل التباين عن (الاستغاثة) التي هي سؤال غير الله ما لا يقدر عليه بطبيعته.

إنّ كثيراً من الذين يُدخِلون (التوسل) في باب العقائد، وإن كثيراً من الذين يُدخلون (الاستغاثة) في باب الفقه، هم الذين لم ينظروا إلى الفرق الاصطلاحي بينهما[1].

---

(1) سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء: [«لا بأس بالتوسل بالصالحين» وقول أحمد: «يتوسل بالنبي ﷺ خاصة» مع قولهم «إنه لا يستغاث=

وهذه نقطة مهمة، أعني أن يحدد الباحث اللفظ الذي يبني عليه مدار بحثه، ثم أن يحدد بعد ذلك شرحه وتعريفه لهذا اللفظ أو ذاك المصطلح.

ومما يحز في الفؤاد ويقطع نياط القلوب أن نجد كثيراً من الأخوة الكتاب والدارسين لا يعيرون أي اهتمام لهذه المسألة، فتراهم في أبحاثهم وكتاباتهم يعممون ويطلقون، ثم يصدرون الأحكام تلو الأحكام غير مبالين ولا عابئين بما يترتب على صنيعهم من متناقضات مُربِكة ومعطّلة لا تخدم المسلمين في قليل أو في كثير . .

فمثلاً تجد كثيراً من الباحثين وفي أحايين كثيرة يتكلم حول جواز (التوسل) وإقراره، لكنك إذا تأمّلت كلامه وتعبيره وجدته يستعمل تارة لفظ (التوسل) وتارة أخرى يستعمل لفظ (الاستغاثة) وهو لا يقصد في كلامه إلا معنى التوسل في كلا تعبيريه، وهذا ما يوقعه تحت وطأة أحكام قاسية من حيث أنه لم يقصد ما يؤهله لانطباق الحكم عليه، وإنما أوقعه في ذلك عدم تنبهه إلى ما بين المصطلحين من فرق شاسع من حيث المفهوم والحكم.

وقد تجد خطأً مماثلاً لدى إخوة آخرين، فتراهم وهم بصدد الكلام حول منع

(الاستغاثة) وذكر ما يترتب عليها من أمور تقدح في العقيدة وتشرخ

= بمخلوق» فقال: فالفرق ظاهر جداً، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين، وبعضهم يخصه بالنبي ﷺ وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسالة من مسائل الفقه، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى، ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات. فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحدا ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده، لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين، فأين هذا من ما نحن فيه؟]. فتاوى الشيخ محمّد بن عبد الوهاب/ مجموعة المؤلفات / القسم الثالث / ص 68 / نشر جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

أصولها، إذا بهم يستعملون لفظ (التوسل) حيناً وحيناً آخر لفظ (الاستغاثة) ثم لا يقصدون فيما يرتّبون من الأحكام التي تخدش العقيدة والإيمان إلا لمن قصد معنى الاستغاثة فحسب.

وهذا ما يوقعهم تحت وطأة اللوم والتقريع، وتهمة التسرع في إطلاق الأحكام، والتسرع في التكفير والتبديع على الرغم من أنهم لم يقصدوا ذلك، والذي أوقعهم في هذا الخطأ أنهم لم ينتبهوا ـ كسالفهم ـ إلى ما بين المصطلحين من تباين كلي واختلاف كبير.

وبين يديّ عدد من المؤلفات في موضوع التوسل من المجيزين والمانعين وقع مؤلّفوها في الخطأ المذكور آنفاً.

لذا أرى أن من الضروري أن توضع الأحكام طبقاً للمصطلحات، ومن ثمّ أن تكون المصطلحات واضحة بيّنه في دلالتها لا يحتاج في فهمها إلى جهد كبير، كما أن على الباحث أن (يُفصّل) في إثباته ولا (يُجمِل) فإن في كثير من الإجمال إشكالاً ما بعده إشكال.

وتكاد تكون أغلب النقاشات والنزاعات نتيجة ما تقدم . . فقد يتناقش اثنان أو ثلاثة أو أكثر ساعاتٍ وساعات وربما أياماً وأشهراً بل أحياناً سنين عديدة . . يحمل كلٌّ فيها على أخيه في صدره مالا يليق أن يحمل مثلهُ على مسلم، هو أخوه وسميُّه، وفداؤه يوم الملاحم.

وقد يقدر الله أمراً ليلطف بهم وهم في غمرة نقاش من نقاشاتهم الحادة، فإذا بهم يرون أنفسهم متفقين لم يختلفوا في شيء، وإنما جنى عليهم أن أحدهم لم يسأل صاحبه عن قصده في مصطلحه وعبارته، فكان أن عاداه على مصطلح يوافقه في معناه على الرغم من مخالفته لظاهر لفظه وإقراره إياه على مدلوله الصحيح، فإن كانت النفوس على قدر عال من التزكية اعتذر كلٌّ إلى أخيه، وعادا إلى ما كانا عليه من الود والصفاء - وإن كان الأجدر أن لا يذهب الود بينهما -.

وإن كانت النفوس قليلة الحظ من التزكية أصرّا على موقفهما تعصباً،

ورفضا التنازل عنه تزمّتاً بعد أن عُرِفوا بين الناس به، فإن النفوس إذا لم تتزكَّ كان هذا من الصعوبة عليها بمكان كبير، أعني أن يتراجع الإنسان عن أمرٍ بعد أن عُرِف به ودافع عنه .. ونعى على مخالفيه نعياً شديداً .. زمناً طويلاً ..

ولا شك في أنه صَعْبٌ اللهمّ إلا على مَن سهله الله عليه .. (وقليلٌ ما هم).

وما دمنا في مقام الحديث عن الفرق بين التوسل والاستغاثة فإني سأكتفي بالاستشهاد بأقوال عدد من أئمة التصوف في النهي عن الاستغاثة، ولعلّ القارئ الكريم يسأل عن السر في استشهادي بأئمة التصوف في هذه القضية مع العلم أن نصوصاً مماثلة عن الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أجلاء الأمة قد قالوا بمثل ما قاله أئمة التصوف.

والجواب على ذلك أنني آثرت مقولات أئمة التصوف لسببين:

1. وجدت عدداً من المنسوبين إلى التصوف يظنون مشروعية الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، فأردت أن أوضح لهم أن أئمة التصوف لا يجيزون ذلك[1].

2. وجدت عدداً من الكُتَّاب في هذا الموضوع، لا يفرّقون بين أقوال أئمة التصوف وأقوال المنسوبين إليه.

لذا أحببتُ أن أضع أمام الجميع هذه النصوص في النهي عن الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، منقولة عن الأئمة وهم ينهون عن الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى ليكون الجميع على بصيرة، ذاك لأن الاستغاثة تَوَجُّهٌ بالسؤال إلى غير الله، ومهما حاولنا تأويل كثير من الألفاظ التي تصدر عن البعض تحسيناً للظن إلا أن الصيغة تبقى غير شرعية لم ترد عن الصحابة ولا التابعين (رضوان الله عليهم).

---

(1) مع أنني أحب أن أسجل كلمة أعدّها أمانة في هذا المقام، فإن من التقيت به ممن يظن مشروعية الاستغاثة يفسرها على أنها نوع من أنواع التوسل، وهذا يعني أنهم لا يعتقدون ما يدل عليه ظاهر اللفظ. مع تأكيدي أن اللفظ غير جائز شرعاً.

مثالها أن يقول بعض الناس: يا رسول الله خلّصني من مشكلتي أو أنقذني من مصيبتي، أو يا شيخ (فلان) اشفني، أو جئتك من أجل مريضي (فلان) فعافه وشافه وغير ذلك.

ففي هذا ونحوه من الألفاظ التي قد يستعملها بعض الناس، يقول الشيخ عبد الكريم المدرس، شيخ الفقهاء والصوفية في العراق، رئيس رابطة علمائه ـ أمد الله في عمره ـ: لا يجوز دعاء الرسول ﷺ ولا طلبه منه بمثل هذه الصيغة (أي يا رسول الله خلصني ونحوها) التي من شأنها أن تستند إلى الله تعالى لا إلى غيره، لأن الداعي وإن أراد المعنى المجازي الصحيح لكن صيغته موهمة للفساد فيجب تركها [1].

فأنت ترى الشيخ على الرغم من تأويله ـ حفظه الله ـ أنهم يقصدون المعنى المجازي ـ ولعله أراد به (التوسل)[2]ـ إلّا أنه مع هذا ذكر أنه يجب ترك الصيغة لأنها ليست واردة شرعاً، ولا أظن أن ثمّة مستنداً شرعياً من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وعمل الصحابة والسلف الصالح يسوغ أمثال هذه الألفاظ ويعضدها بالمشروعية والإقرار.

ويقول الشيخ أبو يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق.

ويقول الشيخ أبو عبد الله القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون [3].

---

(1) نور الإسلام للشيخ عبد الكريم المدرس ص129. 130. وانظر مجلة الفتوى البغدادية العدد 86 ص7 فثمة فتوى للشيخ الدكتور عبد الملك السعدي رئيس رابطة علماء الأنبار، وهي في مجملها لا تخرج عما ذكره الشيخ عبد الكريم المدرس.

(2) حيث إن الشيخ استدل بأدلة كثيرة على جواز التوسل بالنبي ﷺ مع نهيه عن الاستغاثة به ﷺ.

(3) الرسائل السلفية، الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للإمام الشوكاني الرسالة الثامنة ص4. دار الكتب العلمية.

ومما ذكره العلامة المفسر الآلوسي البغدادي، وهو من أعلام الفقه والتصوف في عصره، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] كلاماً نفيساً في التفريق بين التوسل إلى الله سبحانه بالنبي ﷺ والأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم، فأجاز التوسل وشدد النكير على المستغيثين بغير الله من الأنبياء والصالحين فقال: . . . إن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء، الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل يا سيدي فلان أغثني، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك وأن لا يحوم حول حماه، قد عدّه أناس من العلماء شركاً، وإن لا يكنه فهو قريب منه، ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب، أو يسمع النداء، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى وإلا لما دعاه، ولا فتح فاه. وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. فالحزم التجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من الله تعالى القوي الغني الفعال لما يريد.

ومن وقف على سرّ ما رواه الطبراني في معجمه من أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال الصديق ﷺ: قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[2] لم يشك في أن الاستغاثة بأصحاب القبور، الذين هم بين سعيد شغله نعيمه وتقلبه في الجنان عن الالتفات إلى ما في هذا العالم، وبين شقي ألهاه عذابه وحبسه في النيران عن إجابة مناديه والإصاخة إلى أهل ناديه، أمرٌ يجب اجتنابه ولا يليق بأرباب العقول ارتكابه. . .[3].

ومما ذكره العلامة الآلوسي في تفسير قوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) سور المائدة: الآية (35).

(2) مجمع الزوائد: 10/ 159.

(3) تفسير الآلوسي: 5/ 115. ومما لا يخفى على المختصين، أن تفسير الآلوسي يعد من أهم مصادر التفسير الإشاري لكونه يذكر المعاني الروحية والإشارات الصوفية المستنبطة من الآيات القرآنية.

وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] قال:... وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة، ببعض الأموات وينادي: يا فلان أغثني.

فقلت له : قل : يا الله. فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[2]، فغضب وبلغني أنه قال : فلان مُنكِرٌ على الأولياء![3].

وهذا الذي ذكره العلامة المفسر الصوفي أبو الثناء الآلوسي البغدادي هو ما عليه أئمة التصوف بصورة عامة، وفي بلادنا العراق بصورة خاصة.

وقد حدثني الشيخ سعد الله عارف النقشبندي قال: زرت أنا وأخ لي في الله شيخنا الراحل الشيخ العلامة عبد الله النقشبندي، فقال له صاحبي: يا شيخي إن أهلي مروا بظرف صعب ونادوا مستغيثين بك قائلين: «يا شيخ عبد الله» فتغير وجه الشيخ وغضب كثيراً عليه، وقال: أنا وأنت وهذا ـ وأشار إلى الشيخ سعد الله ـ وأهلك، علينا جميعاً أن نقول: (يا الله)[4].

ومن أعلام التصوف المعاصر الشيخ ملا رمضان البوطي والد الدكتور العلامة محمّد سعيد رمضان البوطي حيث ذكر في ترجمته لوالده ـ رحمه الله ـ: وفي إحدى المرات بادر الدكتور محمود النحلاوي ـ رحمه الله ـ وكان شديد الملازمة لأبي في هذه المدة كلها، وكان واحداً من أخص الملازمين لدروسه ليعينه على القيام قائلاً : يا رسول الله.

---

(1) سورة الزمر: الآية (46).

(2) سورة البقرة: الآية (186).

(3) تفسير الآلوسي: الموضع السابق.

(4) حدث الشيخ سعد الله النقشبندي بهذه الرواية عن سماحة العلامة الدكتور الشيخ عبد الله النقشبندي في مجلس ضم عدداً من أبناء الطريقة النقشبندية، حيث إن أحدهم ذكر أمام الحضور بأنه وأهله يستغيثون بالشيخ عبد الله النقشبندي، فأنكر عليه أخونا الشيخ سعد الله وذكر له القصة المذكورة أعلاه، ودعاه إلى عدم الغلو والمبالغة في المحبة إلى درجة المخالفة للشريعة ـ فجزاه الله خيرا وجزى كل موجه معتدل كل خير.

فقال له أبي : قل: يا الله.

وعقب الدكتور البوطي قائلاً: وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أنه ـ رحمه الله ـ كان يفضل التوسل برسول الله ﷺ على الاستغاثة به، إذ التوسل خطاب لله ودعاء موجه إليه، أما الاستغاثة فالخطاب فيه موجه إلى رسول الله، وصيغة الدعاء موجهة أيضاً إليه، وفي ذلك شيء من سوء الأدب مع الله، وصورة تخالف وجوب السؤال من الله وحده، وهو لم يكن يحرم الاستغاثة، ولكنه كان يفضل صيغة التوسل عليها[1].

وهكذا نجد أن أئمة التصوف يرفضون صيغ الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى وهم في ذلك على مذاهب.

فالآلوسي ذهب إلى أنه إن لم يكن شركاً فهو قريب منه.

والشيخ عبد الكريم المدرس أوجب ترك الصيغة التي فيها استغاثة ومعنى هذا أن المستغيث آثم.

والشيخ ملا رمضان عدها شيئاً من سوء الأدب مع الله.

والشيخ عبد الله النقشبندي زجر قائلها.

وهذا إن لم يفسر بالتحريم، يفسر بالكراهة على أقل ما يمكن.

ولعلي أفهم سر هذا الاختلاف في حكمها :

أن منهم من نظر إلى الصيغة، ومنهم من نظر إلى النية.

فمن نظر إلى الصيغة جعلها قريبة من الشرك.

ومن نظر إلى النية جعلها من سوء الأدب.

---

(1) هذا والدي: ص163.

ومن نظر إلى الاثنين قال بتأثيم قائلها أي بتحريمها.

ولست هنا في مقام الترجيح لقول على قول[1] لكنني أريد أن أقول :

خلاصة القول إن أئمة التصوف ينهون عنها نهياً شديداً، سواء أكانت شركاً أم حراماً أم مكروهاً. فهم متفقون على إنكارها.

ولعل عدم تصريح بعضهم بحكم لها مردوده أن ذلك من اختصاص علماء العقيدة أو علماء الفقه، أما علماء السلوك فإنّ عليهم إرشاد الناس إلى السلوك الأصوب، وليس من اختصاصهم إصدار الأحكام الشرعية، على الرغم من أن من جمع بين العلمين قد أصدر الأحكام كما تقدم في بعض الأحيان.

وهذا يذكرنا بما فعله الشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي مع أحد محبيه حين حلف قائلاً: (ورأس الشيخ).

فغضب الشيخ كثيراً ثم استلقى على الأرض وقال لذلك الرجل: والله لا أقوم حتى تطأن بقدمك رأساً أشركته مع الله[2].

وأحب في ختام هذه النصوص أن أعطرها بما ذكره الإمام الشيخ أحمد الرفاعي ـ عطر الله ثراه ـ في تأكيد هذه المعاني المتقدمة، حيث يقول:

(إياك ورؤية الفعل في العبد حياً أو ميتاً، فإن الخلق كلهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، نعم خذ محبة أحباب الله وسيلة إلى الله، فإن محبة الله سر من أسرار الألوهية يعود صفته للحق، ونعم الوسيلة إلى الله سر ألوهيته، وصفة ربوبيته)[3].

---

(1) والذي أود أن أؤكده أن من تلفظ بتلك الألفاظ معتقداً التأثير الذاتي المطلق لغير الله، فلا شك في أن هذا شرك يخرج صاحبه عن الملة، أما من لم يعتقد ذلك وسرت تلك الألفاظ على لسانه خطأً، أو جهلاً فهو آثم، وعليه أن يترك هذا اللفظ المحرم شرعاً، والله أعلم.

(2) حدثني بذلك الشيخ أكرم عبد الوهاب.

(3) الحكم الرفاعية: ص11-12.

ويقول أيضا: (ولا تعمل بعمل أهل الغلو فتعتقد العصمة في المشايخ أو تعتمد عليهم فيما بينك وبين الله، فإن الله غيور لا يحب أن يدخل في ما آل إلى ذاته بينه وبين عبده)[1].

ويقول الشيخ أحمد الرفاعي أيضاً: (لا تجعل رواق شيخك حرماً، وقبره صنماً، وحاله دفة المكدية)[2].

ويقول أيضا: (من اعتمد على غير الله ذل، ومن استغنى بالأغيار قل، ومن اتبع غير طريق الرسول ضل، الهمة حالة الرجل مع الله فيتفاوت علو مرتبة الإيمان بعلو الهمة، من أيقن أن الله الفعال المطلق صرف همته عن غيره)[3].

ويقول الإمام الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ عطر الله ثراه ـ في تأكيد المعاني المتقدمة أيضاً: (اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق عز وجل وعن بابه لا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره)[4].

وواضح أن كلمات الشيخين في توجيهاتهما مأخوذة من توجيه النبي ﷺ لابن عباس حين قال له: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[5].

بقي أن نقول: ثمّة إشكالية في موضوع (الاستغاثة والتوسل) عند المنشدين

(1) المصدر السابق: ص24.
(2) البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي: ص8.
(3) المصدر السابق: ص12.
(4) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر الكيلاني: ص151.
(5) رواه الترمذي: 4/ 667 بالرقم (2516).

ذوي الأصوات الجميلة من المعروفين بالمديح النبوي الشريف. تتلخص في أن المنشد في الغالب غير فقيه، ومن ثمّ لا يستطيع أن يعرف حدود الألفاظ في المعيار الشرعي، فقد ينظم المحب القصيدة، ويصدح بها المنشد وقد يكون فيها مؤاخذات شرعية، لذا لابد للمنشد من أن يعرض نشيده على الفقيه قبل إنشاده، ليقوم الفقيه بتصويب المخطوء من الألفاظ والمعاني، والعمل على إبدال ذلك بكلمات مقبولة شرعاً من حيث اللفظ والمعنى، مع المحافظة على الوزن الشعري، واقتداؤنا في هذا بالنبي عليه الصلاة والسلام حين صوّب نشيد الجارية حين قالت:

وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدِ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[1].

ويستفاد من هذا الحديث الشريف جملة من الأحكام، منها:

أ. إقراره عليه الصلاة والسلام المديح النبوي.

ب. تصويبه المخطوء مما يقع في شعر المنشدين.

ج. لم يحكم على من تلفظ خطأً ما لا ينبغي له بالتكفير أو نحو ذلك، وإنما اكتفى عليه الصلاة والسلام بتعليمه وإرشاده.

لذا أرى أن يقوم الإخوة المنشدون بعرض أناشيدهم على الفقهاء، لتبديل كل ما يوهم من الألفاظ والمعاني غير المقبولة في الاستغاثات بغير الله سبحانه إلى معاني مقبولة في التوسل، غير موهمة، وأن يعتمد على الأناشيد والقصائد التي نظمها الفقهاء في مدح الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله الأطهار وصحبه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ولا يفوتني أن أنبه هنا على الخطأ الذي يقع فيه بعض الإخوة وهم في ميدان الدعوة إلى الله سبحانه تعالى إنهم يبتدئون بالنهر واللمز مع الناس لا

(1) رواه البخاري: 4/ 1469 بالرقم (3779).

بالتوجيه والإرشاد، ذاك أن الذي علينا معاشر الدعاة أن نوجه الناس وأن نعلمهم ونرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نتلطف معهم بالقول اللين.

فإذا نهيناهم عن (الاستغاثة) بأولياء الله مثلاً . . علينا أن نبين لهم أيضاً ما للأولياء من منزلة عند الله، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن لهم البشرى في الدارين، وأن الله يحارب مَن يعاديهم، فإذا بينت لهم ذلك قلت لهم بعد ذلك أنهم رضوان الله عليهم لا يرتضون ما يفعل معهم من الاستغاثات والنداءات، لأنهم يغارون على مقام الأُلوهية من أن يشارك الله فيه أحدٌ من خلقه، بل هم أشد الخلق غيرةً على شرع الله وحدوده.

ويمكننا أيضاً ونحن ننهاهم عن (الاستغاثة) أن نرشدهم إلى أن يتوسلوا ـ إذا أرادوا ـ بما ذكرنا من أنواع التوسل في مقالنا السابق، أو أية صيغة من صيغ الدعاء التي أذنت فيها الشريعة ويجدون قلوبهم فيها، ونحو ذلك مما لا أُريد أن أكون فيه (ملقِّنَاً) بل (منبِّهَاً) وأدع ذلك لاجتهاد الأخ وحكمته واستعماله للأسلوب الحسن.

وأؤكد ختاماً ضرورة أن يستعمل الداعية الاجتهاد في إرشاده واستعماله مبدأ (البديل الشرعي) فإذا منع شيئاً ذكر لهم البديل الذي يجوز، وكلما كان البديل قريباً من مسألتهم مألوفاً لديهم كان أفضل وأولى والله أعلم.

ختاماً لربما من قائل يقول: ما دامت نيات الناس حسنة فلا حاجة إلى المحاسبة على ما يقولونه من ألفاظ وكلمات . .

والجواب: إننا لا نحاسب الناس على ما يقولونه من ألفاظٍ سرت إلى ألسنتهم خطأً وتقليداً دونما شعور أو انتباه محاسبةً شديدةً قاسيةً، ولكننا نعلمهم دينهم تعليماً هادئاً برويَّة وأناة، متخذين في ذلك النبي محمداً ﷺ الأسوة والقدوة ـ وأكرم به وأنعم أُسوةً وقدوةً ـ فهو ﷺ يقول: « **لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**»[1].

(1) رواه أبو داود في سننه: (4 / 295) بالرقم (4978)، والنسائي في سننه الكبرى: (6 / 245) بالرقم (10821)، والبيهقي في سننه الكبرى: (3 / 216) بالرقم (5600).

وانظر ـ أخي وفقك الله ـ إلى النبي ﷺ وهو ينهى المسلم أن يقرن بلفظه مع الله أحداً من عباده، وأن يعطفه معه بالواو الذي يفيد لغةً التشريك في الحكم على الرغم من أن المسلم لا يعتقد البتة أن أي إنسان له أمام الله أدنى تأثير، ولكنه مع هذا نهى المسلم أن يقول ذلك احترازا وتحفظاً من الشرك وما يقود إليه، ولأن اللفظ موهمٌ لذلك فيجب تركه، فكيف لو سمع النبي ﷺ بعض المسلمين وهم يتلفظون بألفاظ من شأنها أن تسند إلى الله في دعائه وندائه جملةً وتفصيلاً، يسندونها إلى غيره سبحانه وتعالى.

ومما تنبغي ملاحظته أنّ النبي ﷺ لم يرمِ من تلفظ بـ (ما شاء الله وشاء فلان) من الصحابة بالشرك لأنه ﷺ يعلم حسنَ نيته، ولكنه علّمه أن يترك هذه اللفظة وأشباهها، لأن هذه الكلمات تقود إلى ما لا تحمد عقباه.

وأعود فأقول: إن ثمّة فرقاً بين الفاهم وغير الفاهم، فالفاهم يعلّم الناس وغير الفاهم يخطّئ الناس . . إنّ النبي ﷺ نهى أن يسمى العنب كرماً وبين أن الكرم (المسلم) كما رواه الإمام مسلم[1].

ونهى أن يقول الرجل خبُثَتْ نفسي وأن يقول بدل ذلك «**لَقِسَتْ نَفْسِي**»[2]، قال الخطابي : لقست وخبثت معناهما واحد وإنما كرِه لفظ الخبث وبشاعة الاسم منه[3].

وأمثال هذا في السنة كثير، فإذا كان النبي ﷺ ينهى عن مثل هذه الألفاظ وفيها من الابتعاد عن خدش التوحيد وأُصوله ما بين السماء والأرض، فكيف بالألفاظ التي دأب بعض الناس ـ تسرعاً ودون رويّة ـ استعمالها مع غيره سبحانه وتعالى، ولا تنس بأن الدعاء مخ العبادة ولبّ التوحيد.

---

(1) (4/ 1763) بالرقم (2247).
(2) رواه البخاري: 5/ 2285 بالرقم (5825)، ومسلم: 4/ 1765 بالرقم (2250).
(3) الأذكار للإمام النووي: ص317.

التزكية والاتباع

ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون، أهل الاستقامة يوصون كثيرا بمتابعة العلم ومتابعة الشرع.

شيخ الإسلام ابن تيمية

والعالِم إذا عري عن التصوف والتأله فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زلّ عن سواء السبيل.

الحافظ الذهبي

إذا كان من ينتسب إلى الدين منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين.

الشيخ محمّد بن عبد الوهاب

التَّزْكِيَةُ والاتِّبَاعُ

نشَأْتُ من أسرة عريقة بالعلم والتصوف*، وكان أول ما طرق سمعي عن (التصوف) هو ما سمعته من الوالد ـ جزاه الله خيراً ـ كان ذلك في سن مبكرة، في مرحلة دراستنا الابتدائية، حيث كان والدي يؤكد في توجيهه لنا تعلّمَ القرآن الكريم وحفظَه، والاستزادةَ من العبادة، وكان يوضح لنا ما ينبغي علينا فعله من خلال شرح حديثين شريفين.

الأول: قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[1].

والثاني: قوله ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

وهكذا قرر لنا أكثر من مرّة أن التصوف هو: أن نعيش في مراقبة الله سبحانه وتعالى ومحبته، وأن نزداد من العبادة للتقرب إليه، وكنا نسمعه أحيانا يقول: إن معنى التصوف هو الالتزام بمعنى هذين الحديثين.

---

* لا تزال مدرسة ورباط جدّ جدِّنا العلامة سليل العلماء الشيخ الإمام عبد الله الفيضي قائمة في مدينة الموصل بعد مرور قرابة مئة وستين عاماً على إنشائها، وهي تقوم بدورها منذ العام 1264هـ وإلى يومنا هذا بتدريس العلوم الشرعية وتربية السالكين، والحمد لله رب العالمين.

(1) رواه البخاري: 5/ 2384، بالرقم (6137).

(2) رواه مسلم: 1/ 37، بالرقم (8).

وحين ابتدأتُ بالدراسة الشرعية، في المساجد، كان الأستاذ الأول يقول لنا: قال رسول الله ﷺ: « **يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ، يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ**»[1].

قال أستاذنا: إن أهل التصوف يؤكدون هذا الحديث ويسعون للتخلق به، وعلى هذا الحديث مدار أهل التصوف.

وحين التحقنا (بالمعهد الإسلامي) في (الجامع الكبير) في (مدينة الفلوجة) كان ضمن المنهج مادة مقررة على الطلبة هي مادة (التصوف) نقرؤها إلى جانب علوم أخرى كالعقيدة والفقه وأصول الفقه والنحو والصرف إلى غير ذلك.

وكان المقرر على الطلبة في السنة الأولى (في علم التصوف) المقصد السابع في أصول طريق التصوف.

وهذا المقصد هو أحد المقاصد السبعة في كتاب عنوانه المقاصد النووية ينسب للإمام النووي، وقد كان المقصد الأول في العقيدة والمقاصد الخمسة التي تليه في (الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج) وكان على الطلبة أن يستظهروا هذا المتن على طريقة المشايخ يومها في التعليم وها أنا ذا أذكر هذا المقصد:

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

المقصد السابع في أصول طريق التصوف

وهي خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، وإتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السرَّاء والضرَّاء.

(فتحقيق التقوى) بالورع والاستقامة، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن

(1) سنن الترمذي: 5/ 46، بالرقم (2678).

الخلق، وتحقيق الإعراض بالصبر والتوكل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض.

وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى بالشكر له في السرَّاء، واللجوء إليه في الضرَّاء.

و(أصول ذلك) خمسة: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة، فمن علت همته ارتفعت رتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن نفذت عزيمته دامت هدايته، ومن عظَّم النعمة شكرَها، ومن شكرَها استوجب المزيد.

(وأصول المعاملات) خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتأويلات للتحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب.

(فطلب العلم) آفته صحبةُ الأحداث سناً وعقلاً وديناً مما لا يرجع إلى أصل ولا قاعدة، وآفةُ ترك الرخص والتأويلات الشفقةُ على النفس[1]، وآفةُ اتهام النفس الأنسُ بحسن أحوالها واستقامتها وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾[2].

(وأصول ما تداوي به علل النفس خمسة): تخفيف المعدة بقلة الطعام والشراب، واللجأ إلى الله مما يعرض عند عروضه، والفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه، ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي ﷺ باجتماع الخاطر، وصحبة من يدلك على الله تعالى.

ثم تلي هذه المقاصد (خاتمة) وهي مما يحفظ أيضا، ونصها:

---

(1) ولم نجد (آفة ضبط الأوقات) ولعلها (الغفلة والكسل).

(2) سورة الأنعام: الآية (70).

الخاتمة في بيان طريق الوصول إلى الله تعالى

وهو بالتوبة من جميع المحرمات والمكروهات، وطلب العلم بقدر الحاجة إليه والملازمة على الطهارة، وأداء الفرائض والرواتب في أول وقتها جماعة، وملازمة ثماني ركعات الضحى، وست بين المغرب والعشاء.

وصلاة الليل والوتر وصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام البيض، والأيام الفاضلة، وتلاوة القرآن بالحضور والتدبر، والإكثار من الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، وملازمة أذكار السنة صباحاً ومساءً.

(ومنها) اللهم بك نصبح وبك نمسي وبك نحيى وبك نموت وإليك النشور (صباحاً) والمصير (مساءً).

أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، والكبرياء والعظمة لله، والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما لله.

اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك، وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر ـ ثلاثاً ـ.

اللهم إني أصبحت أشهدك، وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك (أربعاً).

رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد نبياً ورسولاً (ثلاثاً).

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[1] إلى آخر السورة.

حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(1) سورة البقرة: الآية (285).

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1].

سورة يس.

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ـ ثلاثاً ـ.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾[2] إلى آخر السورة.

والإخلاص والمعوذتين (ثلاثاً).

بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم (ثلاثاً).

أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه، وعقابه، وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون (ثلاثاً).

أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه (ثلاثاً).

سبحان الله وبحمده (ثلاثاً).

سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته (ثلاثاً).

(وإذا اتسع الوقت) فقل: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر (مائة مرة).

والحوقلة كذلك، لا إله إلا الله الملك الحق المبين (كذلك) لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير (كذلك أو ثلاثاً).

اللهم صل على سيدنا محمّد عبدك ونبيك وحبيبك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(1) سورة الروم: الآيات (17-19).

(2) سورة الحشر: الآية (21).

وفي هذا القدر كفاية لذوي العناية، والله الموفق للهداية، وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل. آمين والحمد لله رب العالمين.

هذا هو نص المتن المقرر على طلبة العلم في الجامع الكبير في (مدينة العلماء) الفلوجة في علم التصوف، وهو كما يبدو على منحيين :

الأول : في شرح معاني التصوف.

والثاني : ربط طلبة العلم بملازمة سنن النبي ﷺ العملية والقولية.

وفي كلية الشريعة/ جامعة بغداد درسنا كتاب الوجيز في أصول الفقه للأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان، فجعل الأحكام التي اشتمل عليها القرآن الكريم، مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأحكام المتعلقة بالعقيدة، كالإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهذه هي الأحكام الاعتقادية، ومحل دراستها في (علم التوحيد).

القسم الثاني: أحكام تتعلق بتهذيب النفس وتقويمها، وهذه هي الأحكام الأخلاقية، ومحل دراستها (علم الأخلاق) أو (التصوف).

القسم الثالث: الأحكام المتعلقة بأقوال وأفعال المكلفين، وهي المقصودة بالفقه، والذي يهدف (علم الفقه وأصوله) إلى معرفتها، والوصول إليها [1].

ومن خلال تلك الدراسة اتضح لنا أن دراسة الإسلام تقوم على ثلاثة أسس كبيرة.

الأول: علم العقيدة.

الثاني: علم الفقه.

الثالث: علم الأخلاق.

---

(1) الوجيز في أصول الفقه: ص151.

كان هذا هو كل ما فهمناه عن (علم التصوف) سواء أكان ذلك في تربيتنا الأسرية أم في تعليمنا الدراسي، وكنا وقتها نسمع ـ أحيانا ـ أن هناك من ينكر التصوف أو ينكر على (رجالات التصوف) فنعجب ونحار، ونبدأ نتساءل: لماذا؟ فالتصوف تقوى وإتباع، وسلوك وأخلاق.

بمرور الأيام فهمنا أنّ الإنكار إنما هو على أقوال وأفعال تصدر عن أقوام يدعون بأنهم من أئمة التصوف ورجالاته، لكن الحقيقة القراح تقول: إن هؤلاء ليسوا أئمة هذا الشأن ولا طلبة العلم فيه، إنما هم (دخلاء/ أدعياء) وهذا ليس بمستغرب، ففي كل العلوم وفي كل المشارب حصل هذا حتى طال الأمر علمَ العقيدة والفقه، فلطالما عانى علماء العقيدة والفقهاء من وجود أمثال هؤلاء، ففي علم العقيدة ظهرت فرق لها أول وليس لها آخر، تدعي العقيدة الصحيحة وما هي من ذلك بشيء، وفي الفقه ظهر أولئك الذين تشبثوا بالرخص حتى خرجوا عن حدود ما أنزل الله، وكثيرون آخرون تحت مسميات شتى.

بل إننا حين نتأمل نجد أن ما ينكره مَن هم خارج دائرة (التصوف) على أولئك (الدخلاء) قد سبقهم إلى إنكاره (الأُصلاء) أئمة هذا الشأن قبل غيرهم، فهم أعرف بالخطأ والمخطئين لأن الميدان ميدانهم، ونجد في كلمات أئمة التصوف أمثال الجنيد والكيلاني والرفاعي ـ عطّر الله ثراهم ـ ما يصبُّ في هذا الاتجاه.

لقد تبين لنا أن المنكرين لهذا العلم لم ينكروا العلم الذي تعلَّمناه وعَلَّمناه، إنما أنكروا (آراء، وفلسفات، وشطحات، وزندقات) لصقت بالتصوف فأنكرها هؤلاء ظانين كل الظن أن هذا هو التصوف، وما هي من التصوف بشيء لا من قريب ولا من بعيد، إنما هي (سلوكيات شاذة)، ادعى أصحابها انتسابهم إلى هذا العلم الشريف، وما كل من يدعي شيئاً يناله أو يسلم له فيه.

وهذا يعني أنه قد ظهر مساران في الأمة: مسار التصوف، الأخلاقي، الإحساني، الشرعي، المنضبط بنصوص الكتاب والسنة، ومسار التصوف الفلسفي، البعيد عن الكتاب والسنة.

لذا كان لا بد من أن يدرِك أهلِ المسار الأول أن هناك مساراً ثانياً، حتى

يعذروا الآخرين في شدتهم، وأن يدرك أهل المسار الثاني أن هناك مسارا آخر حتى لا يعمموا خطابهم.

اذكر أنني في حج السنة (1998م) التقيت بأحد مشايخ منطقة (عرعر) وتحدث يومها عن (التصوف) بكلام قاسٍ، حتى إذا أنهى كلامه (حاورته) ولم (أجادله) فذكرت له معنى التصوف الذي تعلمناه وورثناه مما هو عليه أئمته الكبار، أمثال الجنيد والكيلاني والرفاعي، وثناء المشايخ عليه أمثال ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومحمّد بن عبد الوهاب ونجله عبد الله، حتى إذا أنهيت القول قال لي: أنا لا أذم التصوف الذي تقصده.

فقلت له: لكني أذم التصوف الذي تقصده، أذمه كما تذمه، بل أكثر.

صمتَ برْهة ثم أدرك أننا متفقان، وإن بدا لنا ـ لأول وهلة ـ كما يبدو لغيرنا أننا مختلفان.

لذا كان علينا أن نشرح للإخوة، أن ما ظنوه تصوفا وسمي بهذا الاسم ظلما من شطحات الجهلة، وخيالات الفلاسفة، هو الانحراف عن جادة التصوف، وليس التصوف نفسه الذي حفظنا فيه (المقصد السابع)، وأن علينا جميعاً أن نقوِّم هذا الانحراف في هذا المسلك، كما نقوِّمه في أي مسلك من المسالك، بالحكمة والموعظة الحسنة.

لكن هذا سيطول، بل طال فعلاً، ومن أين نجد (المتحاورين) لا (المتجادلين) يندر أن تجد نقاشاً بين اثنين إلا وينتهي بالبغضاء والشحناء.

لقد فهمتُ بعد ذلك ما كنت أعتب عليه، من ابتعاد بعض أئمة التصوف ومشايخه في هذا العصر عن مصطلح التصوف في كتب كتبوها عن التصوف، لعلهم لم يشاؤوا أن يذهبوا ببهاء هذا العلم بجدل عقيم، من أجل مصطلح يفهمه من يفهمه ونحتاج إلى وقت طويل إلى شرحه لمن لا يفهمه، أدركت أن أولئكم أرادوا أن يرتفعوا بالأمة من الوقوف عند الجدل حول المصطلح إلى (العمل) بروح المصطلح وفحواه.

فمنهم السيد أبو الحسن الندوي الداعية المعروف، فقد ألف كتابا أسماه

(ربانية لا رهبانية)، تحدث فيه عن جهود رجالات التصوف في نشر الإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل الله، وضرب على ذلك أمثلة كثيرة، ووقف عند شخصية الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني وجهوده في الدعوة والتربية ثم تحدث عن (دور الصوفية الإصلاحي في الهند وتأثيرهم في المجتمع)[1] وتعرض إلى عدد من المواقف الرائعة لأئمة التصوف ما بين أمر بمعروف ونهي عن المنكر، وما بين حكمة في إيصال الحق إلى الناس، وربط بين التزكية الروحية والجهاد والكفاح؛ وعن تأثير الصوفية في الحياة العامة وأخلاق الشعب يقول:

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد، والإخلاص، وإتباع السنة والتوبة عن المعاصي، وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر، والأخلاق السيئة، والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار...).

ويعدّ كتابه هذا من أروع الكتب التي تولت إبراز الجانب الدعوي والجهادي لدى الصوفية. ولكن الشيخ ذكر في مقدمة كتابه تحت عنوان (فراغ يجب أن يملأ) ما عنون له بـ (جناية المصطلحات على الحقائق والغايات) ذكر فيه أن مصطلح (التصوف) جعل كثيراً من الناس تبتعد عنه لكونه غير مألوف لديهم ثم بين مسألتين:

الأولى: أنه يضع بديلا عن هذا المصطلح يطلق عليه (التزكية) أو(الإحسان) مشيراً إلى أن هذين المصطلحين قد وردا في نصوص الكتاب والسنة، ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

(1) ربانية لا رهبانية ص87.

(2) سورة الجمعة: الآية رقم (2).

فقوله (ويزكيهم) هي (تزكية النفوس) وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة (رضوان الله عليهم) وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان، ويعبر عنها بلفظ (الإحسان) ومعناها كيفية من اليقين والاستحضار، يجب أن يعمل لها العاملون ويتنافس فيها المتنافسون، فيُسأل الرسول ﷺ ما الإحسان؟ فيقول: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

ويتابع الشيخ الندوي فيقول:

(ووجدنا الشريعة وما أثر عن الرسول ﷺ من الأقوال والأفعال والأحوال، ودوِّن في الكتب ينقسم بين قسمين: أفعال وهيئات، وأمور محسوسة كقيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك قد تكفّل بها الحديث رواية وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً، وقام بها المحدثون والفقهاء ـ جزاهم الله عن الأمة خيراً ـ فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به.

وقسم آخر هو: كيفيات باطنة، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهو الإخلاص والاحتساب، والصبر والتوكل، والزهد وغنى القلب، والإيثار والسخاء، والأدب والحياء، والخشوع في الصلاة والتضرع، والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنة، وأخلاق إيمانية، هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام، تجعل منها عِلْماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً، فانْ سمِّي العلمُ الذي تكفّل

بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر)، سمِّي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن).

فكان الأجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسية والخُلُقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلق بالأخلاق النبوية، وإتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنة وكيفياته الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسموه (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن).

ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال الشقاق، وتصالح الفريقان اللذان فرَّقَ بينهما المصطلح وباعد بينهما الاستعمال الشائع، فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يُقِرُّ بها المسلمون جميعاً)[1].

الثانية: أنه لا ينبغي أن يقف هذا المصطلح حاجباً أمام الإفادة من حقائقه التي (يقررها الشرع، ويدعو إليها الكتاب والسنة، وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد) [2].

ومنهم الشيخ عبد السلام ياسين الذي كتب كتاب (الإحسان) والذي يعد من أروع الكتب المعاصرة في الجمع بين الفكر والروح، والحوار الهادئ، وهو في عمومه كتاب في التصوف، لكنه ـ كما يبدوـ ينأى أيضاً عن مصطلح (التصوف) ويضع بديلاً عنه (الإحسان) وهذا واضح من عنوان كتابه. ومن ذلك قوله:

---

(1) ربانية لا رهبانية: ص8 وما بعدها. ويتابع الشيخ الندوي فيقول: ولوترك المتصوفون الإلحاح على منهاج عملي خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية، أو الإحسان، أو فقه الباطن، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطابع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على الغاية دون الوسائل لم يختلف في هذه القضية اثنان.

(2) ويذكر الشيخ الندوي سببا آخر وهو: أنه دخل في هذا الطريق مدّعون وقد انحرفوا، فصعب التمييز بين الأصلاء والدخلاء. ربانية لا رهبانية: ص13.

(... أعود لأحدث من يقرؤني حديث القلب عن القلب، عن الإحسان، وعن محبة الله ورسوله، وعن المعرفة، وعن الكمال.

كل ذلك من خلال عرض هادئ لقضايا التصوف، ومن خلال نصوص لا خلاف حول مؤلفيها، فأنا لا أحب أن أدخل في جدل، ولا وقت لأضيعه في الدفاع أمام محاكمات لا تنتهي.

لست أدعو إلى التصوف، ولا أحب الاسم والشكل، لأني لا أجدهما في كتاب الله وسنة رسوله، بعد أن اخترت جوار القرآن والجلوس عند منبر الحبيب المصطفى ﷺ. لا، ولا حاجة لي بالمصطلحات المحدَثة، فلي غنى عنها بلغة القرآن وبيان إمام أهل الإحسان. لكن الحق مع الصوفية، حق حب الله تعالى، وابتغاء وجهه، وإرادة الوصول إليه، والتماس الطريق لمعرفته، وما يكرم به الحنّان المنّان المصطفين من عباده، حق ثابت في القرآن والسنة، ثابت في حياة من تعرض لنفحات الله، وصدق في الله، وذكر الله، وسار إلى الله)[1].

ومنهم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (الحكم العطائية شرح وتحليل) الذي يعد من أروع الكتب التي كتبت في السير إلى الله يقول:

(سيقول بعض الناس: إن العكوف على دراسة هذه الحكم إنما هو انصراف إلى (التصوف). والتصوف شيء طارئ على الإسلام متسرب إليه، فهو من البدع التي حذر منها رسول الله ﷺ إذ قال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**»[2].

وأقول في الجواب: أما الأسماء والمصطلحات فلا شأن لنا بها ولا نتعامل

(1) الإحسان: 1/ 2322.

(2) رواه أبو داود من حديث العرباض بن سارية وأوله: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، فقال قائل يا رسول الله: كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) (4/ 200)، بالرقم (4607).

معها. وها أنا منذ الآن سأبعد كلمة (التصوف) هذه، من قاموس تعابيري وكلماتي، مع العلم بأن الأسماء والكلمات ليست هي التي توصف بأنها الإسلام أو هي البدع الطارئة عليه، وإنما الذي يوصف بهذا أو ذاك، مسميات الأسماء ومضامينها والمعاني التي جاءت الأسماء والمصطلحات معبراً عنها وخادماً لها . . فالمصطلحات والأسماء ليست هي المعني بقول رسول الله ﷺ : «**مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**» وإنما المعني بها المعاني والمسميات التي تتمثل في معتقدات زائغة أو سلوكات باطلة.

ولكني، على الرغم من هذا، لن أتعامل مع الأسماء والمصطلحات الحديثة التي تثير حساسية بعض الناس الذين يتعاملون مع الأسماء والمصطلحات والشعارات أكثر مما يقفون على جوهر المعاني والمسميات.

ولذا فلسوف أحاول أن أشطب كلمة (التصوف) من ذاكرتي، فإن لم أستطع إلى ذلك سبيلا، فلا أقل من أن أبعدها عن قاموس تعابيري وكلماتي خلال رحلتي هذه كلها في خدمة حكم ابن عطاء الله وتجلية معانيها)[1].

ثم بعد أن يوضح أن الإحسان الذي دعا إليه رسول الله ﷺ هو لباب الإسلام، بل هو الجامع المشترك بين الإيمان والإسلام في إشارة منه إلى قوله ﷺ : «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

ثم يتابع الحديث بالتذكير بالآيات القرآنية الآمرة بالسعي إلى تزكية النفس وتطهيرها من أوضارها التي سماها الله باطن الإثم في إشارة منه إلى قوله تعالى: ﴿**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**﴾[3].

ثم يقول: (ثم إذا جاء من يطلق على الالتزام بهذا النهج الرامي إلى هذا الهدف التربوي القدسي اسم (التصوف) أو (علم السلوك) أو (فن التزكية) أفتكون هذه التسمية مزهقة لشرعية المضمون موجبة لإبطال الحق وإحقاق

---

(1) الحكم العطائية: 1/ 11.

(2) رواه مسلم: 1/ 39، بالرقم (9).

(3) سورة الأنعام: الآية (119).

الباطل؟! . . على أن بوسعك أن تلتقط المنهج والمضمون وتلقي الاسم والمصطلح وراء ظهرك، أو حتى ـ إن شئت ـ تحت قدمك، وبذلك تصلح ما ترى انه خطأ وتقوِّم ما تعتقد أنه معوج، المهم ألا تأخذ الجار بظلم الجار، وتعاقب المسمى البريء بجريرة الاسم)[1].

ومنهم الدكتور الشيخ عبد الله نجل الشيخ مصطفى النقشبندي الهرشمي، حيث كتب كتابه (معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي) وقد نأى بقوة عن لفظ (التصوف) وجعل بديلا عنه (عمل الروح)[2] وجعل العمل الروحي في الإسلام معتمداً على أربعة أركان راسخة واضحة وهي :

الركن الأول: الاعتصام بالشريعة الغراء.

الركن الثاني: العلم النافع.

الركن الثالث: الجهاد في سبيل الله.

الركن الرابع : العمل الصالح.

وتحدث الشيخ ـ وهو سليل أسرة علمية صوفية ـ عن الطرق الصوفية وأشار إلى أثرها في نشر الإسلام في شبه الجزيرة الهندية، وفي أفريقيا : في السنغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونايجيريا وجاد. لكنه عنون : (عمل الروح) لا (التصوف)[3].

ومن خلال هذه النصوص المتقدمة تتضح لنا إجابة ذلك السؤال الذي يقول فيه سائله : هل كان التصوف في زمن النبي ﷺ؟.

---

(1) الحكم العطائية: 1/ 17. ويضيف: إن استنكار المشروع من سبل تزكية النفس وبلوغ درجة الإحسان من أجل البدع التي تسربت إليه، هو دعوة غير مباشرة إلى هذه البدع وإغراء خفي بقبولها وبالتعامل معها. ولعل من أهم أسباب انتشار هذه البدع وعكوف فئات من الناس عليها باسم التصوف ونحوه هذا اللون من الاستنكار الذي يهدف إلى هدم الدار كلها، من أجل آرائك غير مريحة فيها.

(2) مع ملاحظة أن الشيخ نأى عن لفظة التصوف لأنه يعدها ـ في الأصل ـ من الألفاظ التي ذم بها خصوم الزهاد أهل العمل الروحي. ينظر: معالم الطريق: ص12.

(3) معالم الطريق: ص184-186.

وملخصها الآتي :

إن كان المقصود لفظ التصوف ومصطلحه، فقطعا لم يكن موجوداً، شأنه في ذلك شأن ألفاظ العلوم الأخرى ومصطلحاتها، التي لم يحط من قدرها ويقلل من أهميتها عدم وجود مصطلحاتها وألفاظها في زمن النبي ﷺ، فلم يكن في عهد الرسالة مصطلحات التجويد من أحكام الإدغام والمدود، ولم تكن مصطلحات علم الحديث الشريف، من المرسل والمنقطع والمعلل، ولا مصطلحات أصول الفقه، من مباحث الاستصحاب والقياس والعلة والسبر والتقسيم، بل ولم يكن مصطلح علم العقيدة، إنما هذه حدثت فيما بعد، وهكذا في سائر العلوم الشرعية.

أما إن كان المقصود من السؤال معنى التصوف وفحواه، فان ما ذكرناه مما أصّله السابقون، وشرحه اللاحقون في معنى التصوف، لا يشك مسلمان في أنه موجود في عصر الرسالة، وان نصوص القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ وأصحابه الأساس لمن أراد أن يستقي طرق التزكية وسبل الإحسان التي أطلق عليها فيما بعد اسم التصوف، يوم أطلقت المصطلحات على سائر العلوم، فظهرت مسميات: علم العقيدة، وعلم مصطلح الحديث، وعلم التصوف، وعلم التجويد، وعلم النحو والصرف.

ولم يمنع هذا الاسم الحادث في أن يُثني على مشايخ هذا العلم أئمةٌ معروفون، فمنهم ابن تيمية إذ يقول: (ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع)[1].

وكذلك تلميذاه الذهبي وابن القيم، إذ يقول الحافظ الذهبي: (والعالم إذا عري عن التصوف والتألّه فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زلّ عن سواء السبيل)[2].

---

(1) منهاج السنة النبوية: 3/ 82.

(2) سير أعلام النبلاء: 15/ 410.

ويقول الإمام ابن القيم: (والتصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه فان المرء مع من أحب)[1].

بل إن الشيخ محمّد بن عبد الوهاب يثني هو ونجله الشيخ عبد الله على التصوف ومشايخه، فيقول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب: (اعلمْ أرشدك الله أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذي هو العلم النافع، ودين الحق الذي هو العمل الصالح. إذا كان من ينتسب إلى الدين منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين)[2].

ويقول الشيخ محمّد بن عبد الوهاب أيضاً، في ثنائه على مشايخ الصوفية: (ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون يوصون كثيراً بمتابعة العلم، قال بعضهم: ما ترك أحدٌ شيئاً من السنة إلا لكِبْرٍ في نفسه)[3].

ويقول ولده الشيخ عبد الله بن الشيخ محمّد بن عبد الوهاب: (ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي، إلا أننا لا نتكلف له تأويلا في كلامه ولا في أفعاله، ولا نعول ونستعين ونستنصر ونتوكل في جميع أمورنا إلا على الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، قال ذلك عبد الله بن الشيخ محمّد بن عبد الوهاب، عفا الله عنه والمسلمين)[4].

---

(1) مدارج السالكين: 2/ 317.

(2) أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: القسم الثالث ص 71 (فتاوى ورسائل) المسالة الخامسة.

(3) أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ملحق المصنفات: ص124.

(4) الهدية السنية: ص39، مجموع رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها، جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان النجدي، علق عليها السيد محمد رشيد رضا، مطبعة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة، سوق الليل.

ولعلّ هذا من لطيف المفارقات أن ابن تيمية، وتلميذيه الذهبي، وابن القيم، ومحمّد بن عبد الوهاب، وولده عبد الله، الذين هم من أهم أعمدة البيت السلفي في عصرنا، يقرون مصطلح التصوف والصوفية، ولا يرون في ذلك حرجاً أو ضيراً ما دام المعنى شرعياً لا غبار فيه.

في حين يذهب أبو الحسن الندوي، والبوطي، والشيخ عبد السلام ياسين، والدكتور عبد الله النقشبندي، وهم من أعمدة البيت الصوفي في عصرنا، إلى الدعوة إلى التخلي عن مصطلح التصوف والابتعاد عنه بالكلية.

وأجدني منساقاً عند كتابتي أوّل هذا المقال مع الأخيرين فقد جعلت عنوانه (التزكية والإتباع).

وأجدني وأنا في آخر المقال مضطراً إلى ذكر ما يتردد في نفسي :

أأسير مع أعمدة البيت السلفي فأبقي مصطلح التصوف؟!.

أم مع أعمدة البيت الصوفي فألغي هذا المصطلح؟!.

ولا يزال قلمي خجلاً أنْ يضع علامة (×) على مصطلح عريق تاريخه في الأمة أكثر من اثني عشر قرناً وحائراً لأنَّ عدداً من الأمة لم يعد يقبل هذا المصطلح في عالم اليوم.

وحتى لا يعترض على مصطلح (السلف)، فهو الأخر ينطبق عليه ما قيل في مصطلح التصوف من حيث كونه من المصطلحات الحادثة في الأمة فقد وضعت له مصطلح (الإتباع) فهو مصطلح قرآني.

أقول هذا وإنْ كان السابقون قد قالوا : (لا مشاحة في الاصطلاح) فإنَّ لغة اليوم ـ كما يبدو ـ تقول هناك مشاحة بل (مشاححة) في الاصطلاح.

لندع الاصطلاح رغبة في الوصول إلى الاصطلاح.

لندع الاصطلاح اللغوي عسى أنْ نصل إلى الاصطلاح الأخوي.

والظن الغالب أنَّ السابقين الذين وضعوا المصطلح بقصد التوضيح والإفادة لو عاشوا عصرنا لكانوا أوَّل مَنْ أعاد النظر في ذلك.

فإنْ لم يستطع الأشقاء من الالتقاء تحت خيمتي مصطلحين بشريين:

(التصوف والسلف) .

فسيلتقون تحت خيمتي مصطلحين قرآنيين:

(التزكية والاتباع)[1].

نسأل الله تعالى ذلك.

قولوا معي ـ أي أخوتي ـ،

آمين.

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ سورة الشمس: الآية (9)، وقوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ سورة آل عمران: الآية (31).

الخاتمة

بطاقة عزاء إلى الأعزاء

إيهٍ أيها الجامع الكبير الشامخ على ضفاف الفرات . . .

وواهاً يا جامع الراوي النابت في الفؤاد . . .

وواهاً يا جامع الشيخ عبد العزيز السامرائي . . . الرمز . . . والفعل

سلام عليكم . .

سلام عليكِ . . . يا كل مساجد المدينة

وسلام عليكِ . . . يا مدينة المساجد . . . (يغسل وجهك القمر)

* * *

واهاً ليوم جمعة لا تقام فيه جمعة في مدينة المساجد . .

واهاً لمحاريب خلت من أئمتها . . . ومحافل غاب قراؤها . .

ما تخلف الركب إلا ليقيم الصلاة في فراديس الجنان . . يصغي بشوق وأنس إلى سورة الرحمن . . . تتردد أصداؤها في جنبات الأفق العلوي . . .

يا أهلنا صلينا الجمعة وما صليتم، بل ربما صليتم وما صلينا (وان الرجل ليصلي ولا يكتب له من صلاته إلا ما عقل) لعمر الله فمن الذي عقل؟.

لا ندري هل غدت لغة العقاب الجماعي وسيلة الطغيان المعاصر لفرض إرادته المخالفة لإرادة الشعوب حتى عبرت تلك اللغة عن نفسها من خلال

(المقابر الجماعية) على يدي (مستبد) تارة، و (محتل) تارة أخرى.

والذكرى تعود بنا إلى (فلوجة) الشمال لتقف عند (حلبجة) الوسط.

إن الأمة تقف بإكبار واحترام أمام مدينة عرفت واجب الوقت فودعت اللعب حتى قبرت (ملعبها) واتخذت منه (رمزاً) تاريخياً تذكره الأجيال، ومعلماً تضرب به الأمثال

* * *

وتحية كبيرة أخرى لأهالي مدينة الموصل ومدينة البصرة، قبلهما بغداد العزيزة، وما حولهم وما بينهم من مدن في الشمال والجنوب.

أولئك الذين ضمدوا جراحاتهم في الفلوجة في مستشفاها البديل، ومدوا سفرة الخير في ديوان الكرم الفلوجي، الذي هو سابق أيام الحرب (في التسعين) حيث انطلقت منها قافلات الكرم تحمل الغذاء والدواء إلى مدن العراق كافة، تكسر جدار الحصار (الداخلي) و (الخارجي) ويبقى الفضل لكم يا أهلنا في الفلوجة سابقاً ولاحقاً حين منحتمونا وسام (من جهز) (فكأنما).

فأنتم أكاديمية الأركان، وجامعة الإيمان.

وتبقى التحية الأكبر لكم يا أهالي مدينة الفلوجة ورحم الله شهداءكم، ورحم الله الأساتذة الأول، رحم الله الحاج محمد الفياض، ورحم الله الشيخ عبد العزيز سالم السامرائي، الذي أبى الله إلا أن يكتب لذكره حضور في ملحمة الدفاع والشرف، فتلقى بصدر مسجده ضربات أراد العدو أن يصوبها نحو أهالي الفلوجة . . الفلوجة التي أحبها وعلمها واليوم فداها.

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

1. الإتقان في علوم القرآن، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الندوة الجديدة، بيروت .

2. الآثار، الإمام يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1355هـ، تحقيق: أبو الوفا.

3. الإحسان، الشيخ عبد السلام ياسين، الدار البيضاء، مطبوعات الأفق، 1998م.

4. إحياء علوم الدين، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1999م.

5. الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الشيخ علاء الدين علي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.

6. الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار، الإمام أبو زكريا يحيى النووي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، 1995م.

7. أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس، الرسائل الشخصية مؤلفات الشيخ محمّد بن عبد الوهاب، القسم الثالث (فتاوى ورسائل) المسألة الخامسة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

8. الإسراء والمعراج، المنسوب لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، مطبعة الغرى الحديثة، المكتبة العلمية، بغداد.

9. البرهان المؤيد، الإمام أحمد بن علي الرفاعي، مطبعة منير، بغداد، 1984م.

10. تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

11. التحفة العراقية في الأعمال القلبية، الإمام ابن تيمية، مطبعة الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة بغداد.

12. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1423هـ- 2002م.

13. التدوين في أخبار قزوين، الإمام عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، دار الكتب العلمية - بيروت - 1987م، تحقيق: عزيز الله العطاري.

14. تفسير القرآن العظيم، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.

15. التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1381هـ- 1961م.

16. التوسل والوسيلة، الإمام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.

17. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزن الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.

18. جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، الشيخ نعمان خير الدين الآلوسي، طبعة بولاق 1298هـ

19. حقائق عن التصوف، الشيخ عبد القادر عيسى، الرمادي، مطبعة النواعير، الطبعة الخامسة، 1413هـ- 1992م.

20. الحكم الرفاعية، الإمام أحمد بن علي الرفاعي، بغداد 1990م.

21. الحكم العطائية شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، الطبعة الأولى،2001.

22. ربانية لا رهبانية، الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 2002م.

23. الرد الوافر، الشيخ ابن ناصر الدمشقي، طبعة المكتب الإسلامي، تحقيق زهير الشاويش.

24. الرسائل السلفية (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد)، الإمام الشوكاني، الرسالة الثامنة، دار الكتب العلمية.

25. الرسائل المنيرية، رسالة ابن تيمية، الشيخ محمد منير الدمشقي، المطبعة المنيرية.

26. الرسالة، الإمام محمد بن إدريس الشافعي، مصر، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، الطبعة الأولى، 1388هـ-1969م، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

27. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الإمام شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1999م.

28. روضة الناظر وجنة المناظر، الإمام عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، الرياض، الطبعة الثانية، 1399هـ، تحقيق: د. عبد العزيز السعيد.

29. سنن ابن ماجه، الإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر - بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

30. سنن أبي داود، الإمام سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

31. سنن الترمذي، الإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر.

32. سنن الدارمي، الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق 1349هـ.

33. السنن الكبرى، الإمام أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة،2003م.

34. السنن الكبرى، الإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، 1411 - 1991، تحقيق د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

35. سير أعلام النبلاء، الإمام محمد بن أحمد أبو عبد الله الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9 1413، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي.

36. شرح القواعد الفقهية، الشيخ أحمد الزرقا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.

37. الصحاح، الإمام إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، 1399هـ- 1979م، بيروت، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار.

38. صحيح ابن حبان، الإمام محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ت354هـ، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثانية،1414- 1993، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط.

39. صحيح البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ- 1987م، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.

40. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

41. صفوة اللآلي من مستصفى الإمام الغزالي، الشيخ عبد الكريم محمد المدرس، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، 1406هـ- 1986م.

42. صيانة الإنسان، الشيخ محمد بشير السهسواني، المطبعة السلفية.

43. فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

44. الفتح الرباني والفيض الرحماني، الإمام عبد القادر الكيلاني، دار العلم للجميع، 1392هـ-1973م.

45. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، بيروت الطبعة السابعة، 1389هـ-1978م.

46. فيض الباري بشرح صحيح البخاري، الشيخ محمد أنور شاه الكشميري.

47. قانون المرافعات المدنية، إعداد المحامي فؤاد زكي عبد الكريم، منشورات مكتب الصباح.

48. القواعد النورانية الفقهية، الإمام ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.

49. لطائف الإشارات لفنون القراءات، الإمام شهاب الدين أحمد القسطلاني، تحقيق: د.عبد الصبور شاهين، والشيخ عامر السيد عثمان، القاهرة سنة 1392هـ- 1972م.

50. لمعة الاعتقاد، الإمام أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، 1406، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.

51. المبدع في شرح المقنع، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1400هـ.

52. السنن الصغرى (المجتبى من السنن) الإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، 1406 - 1986، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

53. مجلة الأحكام العدلية، لجنة مؤلفة من العلماء المحققين، مطبعة الجوائب الطبعة الثانية، 1298هـ.

54. مجلة الفتوى البغدادية، العدد 86.

55. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الإمام علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2011م.

56. مجموعة الرسائل الكبرى ـ رسالة الاحتجاج بالقدر، الإمام ابن تيمية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية،1392هـ-1972م.

57. مجموع الفتاوى، الإمام ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية،المملكة العربية السعودية،1416هـ/ 1995م، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم.

58. مجموعة الفتاوى والرسائل والأجوبة، خمسون رسالة في التوحيد، الرسالة العشرون، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إعداد وتقديم عبد الله حجاج، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، 1408هـ.

59. مدارج السالكين إلى منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الإمام ابن قيم الجوزية، مطبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1393هـ-1973م.

60. المستدرك على الصحيحين، الإمام محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1990م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

61. المستصفى من علم الأصول، الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ.

62. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

63. مطبوعات مركز جمعة الماجد، دبي 1416 هـ.

64. معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، د. عبد الله بن مصطفى النقشبندي، عمان، الطبعة الأولى، 1414هـ- 1993م.

65. المعجم الأوسط، الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين ـ القاهرة، 1415هـ، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسين.

66. المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبرغ، كلية الدراسات الشرقية، إشراف: عبد الرحمن فرفور.

67. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

68. نور الإسلام، الشيخ عبد الكريم محمد المدرس، دار المثنى، بغداد 1984م.

69. الهدية السنية ـ مجموع رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها / جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان النجدي، علق عليها السيد محمد رشيد رضا، مكة المكرمة، سوق الليل، مطبعة النهضة الحديثة.

70. هذا والدي، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1995م.

71. الوجيز في أصول الفقه، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، 2004م.

فهرس المحتويات

هَذَا الكِتَاب

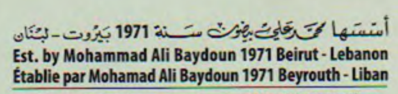
إن هذا الكتاب هو عبارة عن مقالات كان ينشرها المؤلف الشيخ الدكتور فيضي محمد أمين الفيضي رحمه اللّه في عدد من المجلات العراقية، مثل مجلة الفتوى، ومجلة الرباط، التي عقد عليها آمالًا، لتكون متميزة في عطائها، وغيرهما.

وقيمة هذه المقالات تتأتى من كونها حصيلة تجارب في حقل الدعوة خاضها المؤلف في مراحل مختلفة من عمره، وبيئات متعددة، قدر اللّه أن يقضي فيها طرفًا من حياته الدعوية.

ولما كان همه الأول الذي نذر له حياته، وأفنى فيه عمره هو توحيد كلمة المسلمين، والارتقاء بهم إلى مواقع القوة والفعل، كان يحرص في كل بيئة يوجد فيها على اكتشاف الأسباب التي تحول بين المسلمين، وبين هذه الأهداف السامية التي يتطلع إليها بحرقة، وحين كان يقف على شيء من ذلك، يبذل جهده، ويعمل فكره في سبيل ابتكار الوسائل الكفيلة بمعالجة هذا السبب أو ذاك.

ومن هنا كان حريصًا للغاية على جمع هذه المقالات في كتاب، ومن ثم نشره تعميمًا للفائدة، وسعيًا لتحقيق هدفه المنشود، وهو الذي اختار له اسم "في سبيل الإسلام".

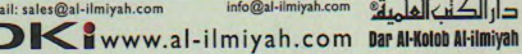




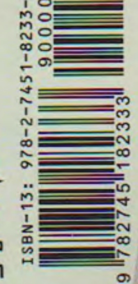
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

هاتف 12/ 11/ 804810 5 961+ — ص.ب. 9424 - 11 بيروت - لبنان
فاكس 804813 5 961+ — رياض الصلح - بيروت 2290 1107

info@al-ilmiyah.com — e-mail: sales@al-ilmiyah.com



DKi www.al-ilmiyah.com



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

ISBN-13: 978-2-7451-8233-3